تقدِّم الآداب ترجمةً قام بها رئيسُ التحرير لمقالين كُتبا ولمقابلة أُجريتْ عَقِبَ التفجيرات الأخيرة (١١ أيلول / سبتمبر) التي طالت مركز التجارة العالميّ في نيويورك ومبنى البنتاغون في واشنطن. ويَتْبعها محاضرةٌ ألقاها المفكِّرُ الباكستانيُّ الراحل إقبال أحمد قبل ثلاث سنوات تقريبًا، وتتضمّن ما يُشبه النبوءةَ بحدوث ما حصل في أيلول مؤخَّرًا. والتعبير الإنكليزيّ «عاد الدّجاج إلى قُنِّه» (الذي استخدمه نورمان فنكلستين وإقبال أحمد هنا) يَعْني بالعربيَّة أنَّ السكّين ارتدّت إلى صَدْرِ حاملها، دلالةً على أنَّ «الإرهاب» الذي غذّته الولاياتُ المتحدة في أفغانستان في مواجهة «إمبراطوريّة الشرّ» السوڤياتيَّة عادَ فطَعَنها في صميمها. تجدر الإشارة إلى أنَّ هذا العدد يَصْدر والعالَمُ على شفير حربٍ قد تشنُّها الولاياتُ المتحدة على أفغانستان وربّما على دول أخرى باسم «مكافحة الإرهاب».

تفجيرات نيويورك وواشنطن: هل عاد الدجاج إلى قُنِّه؟

هوامش على دفتر الانفجارات الأخيرة*

نورمان فنكلستين

تستثير أحداثُ الثلاثاء في ١١ أيلول (سبتمبر) على الفور مشاعرَ الصدمةِ والرعبِ والخوف. ولكنّها لم تَكُنْ كارثةً طبيعيَّةً، إعصارًا أو انفجارًا بركانيًا ـ وكلاهما يستثير المشاعرَ ذاتَها بالطبع. بل إنَّ كارثة الثلاثاء كانت ذاتَ دلالاتٍ سياسيَّةٍ أيضًا. ولكي أَشْرح السببَ أودّ أولاً أن أقارن ما حَصَل بحادثةٍ أخرى.

لقد كان اغتيالُ كنيدي بالنسبة إلى جيلي ما سيكونه الثلاثاءُ الفائتُ بالنسبة إليكم من الآن فصاعدًا. بل الحقّ أنَّ اغتيال كنيدي افتَقَرَ إلى الدلالات السياسيَّة؛ فقد كان في النهاية أقربَ إلى أن يكون مأساةً عائليَّة. والمقارنة التي أَقترحها إنَّما هي مع حادثةٍ ذاتِ صلّةٍ بذلك الاغتيال. فبعد أن قُتِل كنيدي استَحْضَرَ الزعيمُ الأفريقيُّ الأميركيُّ مالكوم أكس تعبيرًا يقول «الدجاجُ يعود إلى قُنِّه.» وهذه الاستعارة أثارت غضبًا شعبيًا عارمًا وأدّت إلى طرده من تنظيم «أمّة الإسلام.»(1) وما عناه مالكوم أكس، بالطبع، هو أنَّ العنف الذي تمارسه الولاياتُ المتحدة بشكلٍ عشوائيٍّ على الآخرين قد ارتدّ عليها الآن.

ليس ثمّة في هذه القاعة مَن هو أكثرُ منّي ألمًا وكربًا نتيجةً للجريمة المروِّعة والضخمة التي ارتُكبتْ ذلك الثلاثاء. فعددٌ كبير من تلاميذي السابقين كانوا يَعْملون في مركز التجارة العالميّ، ويُرجَّح أن يكونوا اليومَ موتى تحت الأنقاض. وهناك أصدقاء لي لم أتمكّن من الاتّصال بهم، وكذلك الأمرُ بالنسبة إلى جيراني في بنايتي. وكان مركزُ التجارة العالميّ مبنًى طويلاً جدًّا، ولو قام النيويوركيُّ بجردة بالنيويوركيّين الذين ارتبطوا يومًا ما بهذا المركز لكانت هذه الجردةُ بالغةَ الطول. ولكنْ بعيدًا عن الغضب المبرَّر والأسفِ المبرّر أرى أنّنا مسؤولون عن التفكير في ما يتعدّى هذا الحدث لكي نَسْتجلي مغزاه، ومسؤولون أيضًا عن بذلِ أقصى جهدنا لمنع تكرارِ هذا الرعب.

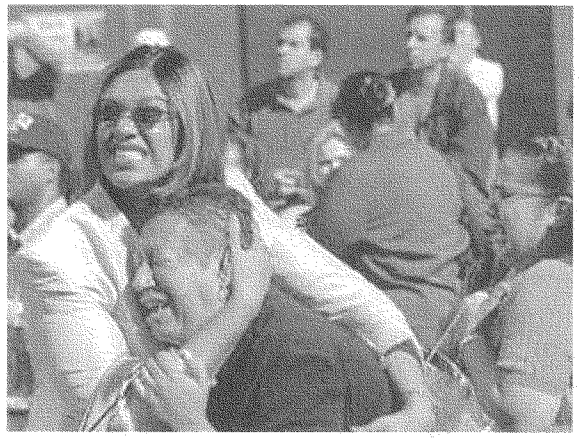

نحن مسؤولون عن بذل أقصى جهدنا لمنع تكرار هذا الرعب

كثيرٌ من الحاضرين في هذه القاعة لن يُحبّوا ما أنا على وَشْكِ قوله. ولكنَّ المخاطر المُحْدِقة أعظمُ من أن نَقْتصر على الأكاذيب. فالآن، أكثرَ من أيّ وقت مضى، علينا أن نقولَ الحقيقة (كما نَفْهمها نحن) بغضّ النظر عن تَبِعاتِ ذلك.

---

* ـ هوامش أدلى بها هذا المثقفُ التقدُّميّ الأميركيّ بعد يومَيْن فقط من وقوع أحداث ١١ أيلول (سبتمبر)، وذلك في جامعة ديبول في شيكاغو. وفنكلستين صاحبُ كتب عدّة أشهرها **صناعة الهولوكوست** الذي صدر منذ أشهر عن دار الآداب. وقد أعادَ صياغة «هوامشه» لتكون مقالةً مخصَّصةً لـ الآداب. فله الشكر.

١ ـ للمزيد من التفاصيل عن هذه المنظمة الأفريقيّة ـ الأميركيّة التي أسَّسها إلايجه محمّد، راجع الآداب ١/٢، ٢٠٠٠. (المترجم)

الجوابُ السهلُ عمّا حدث يومَ الثلاثاء هو أن نَكْتفي بهزّ رؤوسنا غيرَ مصدِّقين ما ارتكبه أولئك المجانين ـ المعتوهون ـ المتعصِّبون ـ الأصوليُّون الشرقأوسطيُّون ـ العرب ـ المسلمون ـ إلى ما هنالك من نعوت، وأن نَخْتزلهم بوصفهم جِنْسًا مختلفًا عن جنسنا نحن، بل أن نقول إنَّهم أدنى من جنسنا بعدّة درجات. ولكنَّ ردّاً أصعبَ إنَّما يتمثَّل في أن نَعْترف **بالإنسان** داخل هؤلاء الناس، وأن نُقِرَّ معاناتَهم والمهانةَ التي يقاسونها. غير أنَّ الردّ الأقسى هو أن نَنْظر نظرةً فاحصةً إلى أنفسنا، وإلى مسؤوليّتنا عن عذابهم.

في حزيران الماضي زُرتُ، كما هي عادتي كلَّ عام تقريبًا، أصدقاء فلسطينيِّين في الضفّة الغربيَّة وغزّة المحتلّتيْن من قِبل إسرائيل. وللمرّة الأولى منذ عقدٍ كاملٍ من زياراتي إلى هناك ألاحِظ تغيُّرًا نوعيّاً في المشاعر الشَّعبيَّة. فأصدقائي الفلسطينيُّون، باستثناءاتٍ قليلة، يَدْعمون الآن العملياتِ الإرهابيَّةَ ضدّ المدنيِّين الإسرائيليِّين (كنتُ قد وصلتُ بُعَيْدَ انفجار الديسكو في تل أبيب). وإذْ لم يَسَعْني أن أوافقَ على تغيير موقفهم هذا، كان في وسعي أن أَفْهم ـ دون أن أَدْعم ـ استهدافَ المدنيِّين، وحذَّرتُ أيضًا أنَّ هذا سيكون كارثةً من الناحية العمليَّة. ذلك لأنَّ عمليَّات الإرهاب الفلسطينيَّة ستَسْتدعي في النهاية ضربةً إسرائيليَّةً انتقاميَّةً ساحقة، وستزول فلسطين. فماذا كان ردُّ فعل أصدقائي؟ بعد عقودٍ من المعاناة التي لا يُمْكن تحمُّلُها، لم يعد هؤلاء الفلسطينيُّون يَأْبهون للأمر. لم يُخِفْهُم تحذيري. أحدُ الفلسطينيِّين من رفح كرَّر مرّةً بعد مرة: «أن نكون أو لا نكون.» واستَحْضَرَ فلسطينيٌّ آخر قصةَ شمشون والهيكل. لقد كان الفلسطينيُّون على استعدادٍ للموت، وعلى استعدادٍ لأن يَصْطحبوا معهم إلى الموت أكبرَ عدد يستطيعون اصطحابَه من قامعيهم الإسرائيليِّين. أوَيَصْعبُ تفهُّمُ موقفهم؟

كانت أمِّي من بين الناجين من غيتو وارسو ومن معسكر مايدنك. وقد سألتُها ذاتَ مرّة رأيَها حين كانت الأخبارُ تتسرَّب أثناء الحرب العالميَّة الثانية، ومفادُها أنَّ الروس كانوا يَقْصفون المدنَ الألمانيَّةَ خَبْطَ عشواء مُلحِقين الموتَ بأعداد هائلة من المدنيِّين. فأجابتْني دون تردُّد: «كنتُ أريد أن يموتَ الألمان. كنتُ أعلم أنَّني لن أعيش، فأردتُ أن يموتوا هم أيضًا. كنّا نهلِّل للرُّوس. كنّا نُريدهم أن يدمِّروا كلَّ ما هو ألمانيّ، أيّاً كان. كنّا نتمنّى لهم الموتَ كلَّ لحظةٍ في اليوم، لأنَّنا كنّا نواجهُ الموتَ كلَّ لحظةٍ في اليوم.»

إنَّ حكومة الولايات المتحدة، وهي حكومةٌ نتحمَّل كلُّنا مسؤوليَّةَ أعمالها، تسبِّب البؤسَ والرعبَ، مباشرةً وبصورةٍ غير مباشرة، لأعدادٍ ضخمةٍ من البشر. والبؤسُ والرعبُ، سواء أكانا ماثلَيْن في التدمير المنهجيّ للبنان عام ١٩٨٢ أم في العراق عام ١٩٩١ أم في صربيا مؤخّرًا، يتّسمان بالنسبة إلى معظمنا بواقعيَّةِ ألعابِ الفيديو. ففي هذه البلدان كان ثمّة قتلٌ جماعيٌّ دونما تبعاتٍ تصيب الأميركان. لقد كان الأمرُ مسلِّيًا لنا إلى حدٍّ كبير. ولكنَّنا الآن نَحْصد الزوبعةَ المروِّعةَ التي زَرَعْناها.

منذ نهاية الحرب العالميَّة الثانية لم تواجِه الولاياتُ المتحدةُ أيَّ أعداء حقيقيِّين، أو هي ـ في كل الأحوال ـ تحمَّلت التهديداتِ التي تصيب «مصالحَها القوميَّة.» وكان الاتِّحادُ السوفياتيّ قوَّةً محافِظةً، بل كان أساسًا ـ كما يتَّضح يومًا بعد يوم وبشكلٍ مثيرٍ للإحباط ـ قوَّةً موازنةً للولايات المتحدة في الشؤون الدوليَّة (لن يمرّ وقت طويل حتى نتطلَّعَ بحنين إلى «المؤامرة الشيوعيَّة العالميَّة!»). في جنوب شرق آسيا وفي أميركا الوسطى حاربتْ أميركا معاركَ مباشرةً، وعَبْر حلفائها، ولكنْ لم تَكُنْ ثمّة مصالحُ أميركيَّةٌ حيويَّةٌ في دائرة الخطر. ومنذ سقوط الاتِّحاد السوفياتيّ بات أعداءُ الولايات المتحدة الرسميُّون (كالعراق وليبيا وإرهابيِّي المخدِّرات إلخ...) بعابعَ وتلفيقاتٍ استحضرناها نحن بأنفسنا لنبرِّرَ ـ من ضِمْنِ أمورٍ أخرى ـ ميزانيَّتَنا العسكريَّةَ المتصاعدةَ أبدًا.

لقد نَظرت الولاياتُ المتحدةُ بارتياح وإعجاب إلى منزلتها الجديدة كقوَّةٍ عظمى لا شريكَ لها. وراحت تتصرَّف بغرورٍ وتيهٍ يأْخذان بالأنفاس: فرَفَضَتْ مؤخَّرًا محكمةً دوليَّةً لجرائم الحرب، ورفضت اتفاقًا على وقف الحرب الجرثوميَّة، وانسحبتْ من معاهدة كيوتو ومن مؤتمر دوربان، وسعت إلى تفكيك معاهدة الصواريخ الباليستيّة المضادّة، وهلمّجرّاً ـ واللائحةُ طويلة. والافتراض حتى الآن هو أنْ لا ثمنَ يَنْبغي للولايات المتحدة أن تَدْفَعَه مقابلَ كونها قوَّةً عظمى لا شريكَ لها: بل إنَّ بإمكانها أن تَفْعل ما تشاء، وبحصانةٍ تامَّةٍ. ولكنْ يَبْدو أنَّ على واشنطن أن تعيد الآن التفكيرَ في هذا الافتراض.

غير أنَّ الانخراط في التفكير الجدي والصَعْب يجب ألا يَقْتصر على قادَتِنا في واشنطن، وإنَّما على كلِّ واحدٍ منّا في هذه القاعة أن يفكِّر مليّاً في حياتنا. فالحقّ أنَّ معظمنا تصرَّفَ وكأن لا عالمَ موجودًا خارج الولايات المتحدة، ولسانُ حالنا أنَّه إذا كان كلُّ الآخرين يريدون أن يكونوا مثلَنا فلا يَنْبغي أن نَعْرف أو أن نهتمَّ ببلدان العالم من حولنا إلاَّ لتمضيةِ عُطْلةٍ محتملةٍ فيها. لم نُبالِ بقراءة الجرائد. وبالتأكيد لم نضيِّعْ وقتَنا في تعلُّم لغات أجنبيَّة، ولسانُ حالنا يقول: ألا يتحدَّث كلُّ إنسان في العالم اللُّغةَ الإنكليزيَّة؟! (وحدَها الدولةُ المُسَمَّمةُ بداء الغرور المفْرِط تستطيع أن تُنْتِجَ حركةً جاهلةً عنيدةً لا تُسمَّى «الإنكليزيَّة أوَّلاً،» على ما في ذلك من جهل وعناد، بل «الإنجليزيَّة فقط!»). ما لدينا من المشاكل كان أعظمَ من أن يَدْفعنا إلى الاهتمام بمشاكلهم «هُمْ.» ولكنْ، يومَ الثلاثاء، انهارَ العالَمُ على رؤوسنا. وعلينا الآن أن نهتمّ بمشاكل «هم» وإلاَّ... بل إنَّ علينا ألاَّ نقوم بذلك وكأنَّه فِعْلٌ خيريّ، وإنَّما بوصفه ضرورةً لبقائنا على قيد الحياة.

إنَّه ليبدو لي حقّاً أنَّنا نَحْتاج إلى أن نَسْأل أصعبَ الأسئلة عن أنفسنا. أليس ثمّة ظلمٌ أساسيٌّ في وجود حفنةٍ قليلةٍ من الناس، منتفخين بالمال حتى حافة الانفجار، وفي مُقابلهم قسمٌ عظيمٌ من

البشريّة يعيش عيشةَ الكلاب؟ وواقع الأمر أنّ هذا التشبيه ليس صحيحًا تمامًا، لأنّ الكلاب في الولايات المتحدة تَحْظى عادةً باهتمامٍ ورعايةٍ يَفُوقان ما حَظِي به نصفُ مليون طفل عراقيّ (أو نحو ذلك) ماتوا نتيجةً للعقوبات الأميركيّة!

ليس ثمّة من جوابٍ سهلٍ عمّا جرى يومَ الثلاثاء. حين فُجِّر أوّلُ جهازٍ نوويّ كان آينشتاين هو مَنْ قال ـ إنْ لم أكن مخطئًا ـ إنّ كلّ شيء قد تغيَّر إلاّ طريقة تفكير الإنسان. أخشى أن يكون هذا هو الخطرَ الأعظمَ الذي يواجههنا اليوم. إنّ ردّ واشنطن على ما حدَثَ سيكون على الأرجح المزيدَ من أفعالها السابقة: ضرباتٍ انتقاميّةً ذاتَ حجمٍ بالغِ التدمير؛ وإجراءاتٍ أمنيّةً جديدةً على المستوى المحليّ تَقْرُض جزءًا أكبرَ من حريّاتنا الأساسيّة. وحتى لو وَضَعْنا جانبًا اهتماماتنا الأخلاقيّةَ والمدنيّةَ المناديةَ بالحريّة المطلقة، أثمّة في هذه القاعة مَنْ يصدِّق حقًّا أنّ كلّ تلك الضربات والإجراءات ستُوقِف الهجماتِ الإرهابيّة؟

إنّ الأمل الوحيد المتبقّي لدينا، بعد أهوال الثلاثاء الماضي، هو أن تتغيَّر طريقةُ تفكيرنا أيضًا.

شيكاغو

لنَكُنْ واضحين تمامًا. نحن لا نشاطِرُ رأيَ مادلين أولبرايت [وزيرة الخارجيّة الأميركيّة السابقة] حين سُئلتْ ما إذا كان استمرارُ الحصار على العراق يستحقّ أن يموتَ في سبيله نصفُ مليون عراقيّ فأجابت: «إنّه لخيارٌ قاسٍ جدّاً، ولكنّنا نَعْتقد أنّ الأمر يستحقّ ذلك.» فنحن نرى أنّ قتلَ مدنيّين أبرياء ليس مقبولاً في أيّ وقتٍ من الأوقات. ولكنّ ذلك لا يَعْني ألاّ يكون علينا أن نحاول أن نَفْهم المغزى الضمنيّ لذلك الهجوم الذي لا يُصدَّق.

لقد لاحظ داعيةُ السلام الأميركيّ أ.ج. ماست ذات يوم أنّ الرابح في كلّ حرب هو الذي يَطْرح المشكلة: فالمُنْتصِر قد تَعَلَّمَ أنّ العنفَ يَنْجح في تحقيق أهدافه. ويبيِّن تاريخُ ما بعد الحرب العالميّة الثانية بأكمله شدّةَ ارتباط هذه الملاحظة بموضوعنا. ففي الولايات المتحدة أُعيدت تسميةُ «وزارة الحرب» وزارةً «للدفاع،» تحديدًا حيث لم يكن ثمة خطرٌ مباشرٌ يهدِّد البلادَ. وشنَّت الحكومةُ تلو الحكومة حملاتِ تدخُّلٍ عسكريّ وزعزعةٍ سياسيّةٍ تحت غطاء «احتواء الشيوعيّة» طالت حكوماتٍ ذاتَ توجُّهاتٍ وطنيّةٍ معتدلة أمثال حكومةِ غولارت في البرازيل أو حكومةِ مصدّق في إيران أو حكومةِ آربنز في غواتيمالا. وحصرًا للموضوع بالزمن الحاضر، دعونا نتأمّلْ بضعَ أسئلة قلّما تُطرح في ما يخصّ السياسةَ الغربيّة، ولاسيّما الأميركيّة.

ـ بروتوكول كيوتو: اعتراضُ الولايات المتحدة الرئيسيّ عليه لا يَسْتند إلى أرضيّة علْميّة، بل حَسْبُه أنّه «سَيِّئٌ لاقتصادنا.» فماذا تُراه يَسْتَنْتج مِنْ ردّة الفعل هذه أناسٌ يَعْملون ١٢ ساعةً في اليوم لقاء أجرٍ هو أجرُ العبيد؟!

ـ مؤتمر دوربان: الغرب يَرْفض أدنى تفكير في تقديم تعويضات لضحايا العبوديّة والاستعمار. ولكنْ أليْس واضحًا أنّ دولة إسرائيل تمثِّل شكلاً من أشكال التعويض الغربيّ عن حملات الاضطهاد المعادية للساميّة، سوى أنّ مَنْ يَدْفع ثمنَ الجرائم التي ارتكبها الأوروبيُّون إنّما هم الفلسطينيُّون العرب؟ أوَلَيس بيِّنًا أنّ إزاحةَ المسؤوليّة هنا لا بدّ أن يَعُدّها ضحايا الاستعمار شكلاً من أشكال العنصريّة؟

ـ مقدونيا: هذا بلد دَفَعه الغربُ إلى الاستقلال من أجل إضعاف صربيا، وحكومتُه ما فتئتْ تَتَّبع الأوامرَ الغربيّةَ بإخلاص. ونتيجةً لذلك تعرَّض لهجماتٍ نفّذها إرهابيُّون سلّحهم الناتو وجاءوا من أراضٍ تَخْضع لسيطرة هذا الحلف. فكيف ستَنْظر الشعوبُ الأورثوذكسيّةُ السلافيّةُ إلى هذا الأمر، وبخاصةٍ بعد تهجير السكّان الصرب من كوسوفو ـ على مرأًى من الناتو ـ وبعد اجتثاثِ قسمٍ كبيرٍ من إرثهم الثقافيّ؟

ـ أفغانستان: لقد تُنوسي بسرعةٍ أنّ أسامة بن لادن كان قد دُرِّب وسُلِّح من طرف الأميركان، الذين يَجْهرون بالاعتراف بأنّهم كانوا يَسْتخدمون أفغانستان لزعزعة الاتّحاد السوفياتيّ حتى قبل غزو

نهاية «نهاية التاريخ»*

جان بريكمون

كل شيء كان يسير على ما يرام. فصربيا، الساجدةُ على ركبتيْها، أرْسلتْ للتوّ ميلوسوفيتش إلى محكمة الجزاء الدوليّة لقاءَ حفنةٍ من الدولارات (اتّضحَ أنّ أكثرَها مخصَّصٌ لدفع الديون التي تعود إلى أيّام حُكْم المارشال تيتو). حلفُ الناتو يتوسَّع شرقًا، باتّجاه روسيا التي لا حول لها ولا قوّة. صدّام حسين يَسْهل قصفُه متى شاء المرءُ ذلك. مقدونيا اضطُرّتْ، بعد أن غَزَتْها كوسوفو، إلى قبول مهزلةِ نَزْع سلاح الكوسوفيِّين على يدِ مَنْ كان قد زَوَّدهم به أصلاً. المناطق الفلسطينيّة المحتلّة تحت سيطرةٍ إسرائيليّةٍ شديدة، فيما تَغْتالُ قادَتَهم قنابلُ «ذكيّة.» مالِكُو الأسهم ما فَتِئوا طوال الأعوام السابقة القليلة يسجِّلون أرباحًا قياسيّة. اليسار السياسيّ انقرض، وكلُّ الأحزاب السياسيّة تسابقتْ نحو الليبراليّة الجديدة ونزعةِ التدخُّل «الإنسانيّ.» وبكلمة، على ما عَبَّرَ بعضُ المعلِّقين، كنّا نَنْعم بالسلام.

وفجأةً وقعت الصدمةُ والدهشةُ والرعب: فأعظمُ قوّة عَبْر كلّ حقب التاريخ، والإمبراطوريّةُ الكونيّةُ الوحيدةُ بحقّ، تُضْرَبُ في صميمها، في مركزِ ثرائها وقوّتها. وأمّا شبكةُ التجسُّس الإلكترونيّة الفريدة القهّارة، وأمّا التدابيرُ الأمنيّةُ التي لا توازيها أيُّ تدابير، وأمّا ميزانيّةُ الدفاع المذْهلة ـ فكلُّها لم تَنْفع في تجنُّب الكارثة.

* ـ مقال نُشر في موقع «زي نت.» وبريكمون أستاذ الفيزياء النظريّة في جامعة لوڤان في بلجيكا.

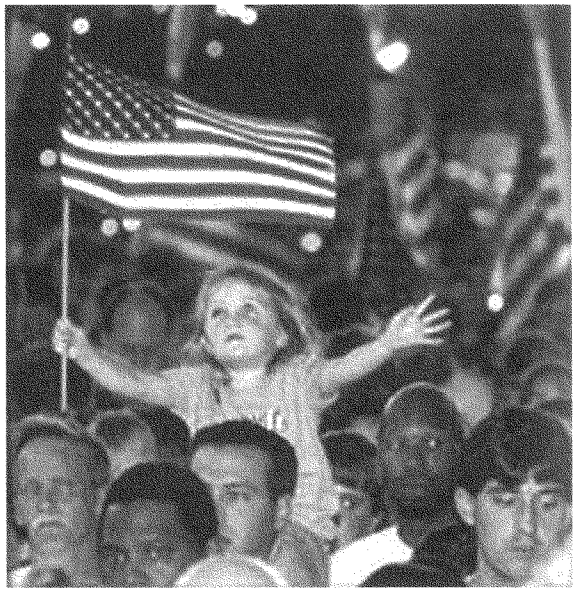

سيسارع الجمهور الأميركيّ إلى الالتفاف من حول العلم داعمًا حكومتَه أيّاً كانت بربريّة سياستها

هذا الأخير ذلك البلدَ. كم شخصًا مات في تلك اللُّعبة التي دعاها زبيغنيو بريزنسكي، مستشارُ الرئيس الأميركيّ الأسبق جيمي كارتر، «رقعةَ الشطرنج العظيمة؟» وكم إرهابيّاً في آسيا، أو في أميركا الوسطى، أو في البلقان، أو في الشرق الأوسط تُركوا ليَعْدُوا مُنْفلتي السّراح بعد أن استخدمهم «العالَمُ الحُرّ؟»

ـ العراق: عشر سنوات وشعبُ هذا البلد يَخْتنق نتيجةً لحصارٍ سَبَّبَ مئاتِ آلاف القتلى من المدنيِّين. وكلُّ هذا لأنَّ العراق حاول أن يستعيد ما اعتبره آبارَ نفطه التي كان البريطانيُّون قد صادروها منه بقوّة الأمر الواقع. فلنقارنْ ذلك فقط بالمعاملة التي حظيتْ بها إسرائيلُ بعد احتلالها المناقِضِ للشرعيّة الدوليّة مناقضةً تامّةً عام ١٩٦٧. أَمِنَ المحتمل حقّاً أن يتفهَّم العالَمُ العربيُّ الإسلاميُّ المقولةَ التي يَقْبلها الغربُ إجمالاً، ومؤدّاها أنَّ على صدّام حسين أن يُلام على كلّ شيء؟

وتشاء الصُّدفُ وحدها أن توافِقَ عمليّاتُ ١١ أيلول (سبتمبر) في الولايات المتحدة ذكرى الإطاحة بـ «اليندي» ـ وهي الذكرى التي لا تؤشِّر فقط على تَنْصيب الحكومة «النيوليبراليّة» الأولى، أيْ تلك التي ترأّسها الجنرال بينوشيه (وهذه حقيقةٌ يتمّ تناسيها بسهولة)، بل تؤشِّر أيضًا على بداية تحرُّكٍ واسعٍ ضدّ الحركات القوميّة والاستقلاليّة في العالم الثالث، وهو تحرُّكٌ قاد بلدانَ هذا العالم إلى الانحناء أمام إملاءات صندوق النقد الدوليّ.

تلكم هي الأسبابُ التي تَدْفعنا إلى أن نشكّ في أنَّ مأساة ١١ أيلول ستؤدّي بشعوب أميركا اللاتينيّة، وأندونيسيا، وإيران، وروسيا المدمَّرةِ والمُهانةِ، والصينِ التي لا تَخْدع أحدًا محاولاتُ زعزعة العملاق الناهض، والعالمِ الإسلاميِّ أيضًا، إلى ذرفِ ما هو أكثرُ من دموعٍ تماسيح!

بالطبع ستكون هناك صيحاتُ سخطٍ ورسائلُ تعاطف. وسيكون ثمّة تأييدٌ للقيام بـ «ردودٍ حازمة» حين تَحْصل (أسيدمِّر العدوانُ القادمُ مصْنعًا للأدوية في السودان، أو يَقْصفُ شعبًا أعزلَ في بلدٍ عربيّ آخر؟). وسيَطّلع عددٌ كبير من المثقفين بتحليلات ذكيّةٍ مليئةٍ بالتشبيهات الخاطئة التي تَرْبط هذه الاعتداءاتِ بمن يعادونه وبما يُعادُونه: بصدّام حسين، أو بالقذّافي، أو بدعاة السلام ومعادي الإمبرياليّة، أو بحركة التحرُّر الفلسطينيّة، بل بالصين أو روسيا أو كوريا الشماليّة أيضًا. وستتكرَّر المزاعمُ بأنَّ بربريّةً كالتي حدثتْ في نيويورك وواشنطن غريبةٌ تمامًا عنّا: فنحن، في النهاية، نفضّل أن نَقْصف من عَلٍ، ونفضّل أن نَقْتل تدريجًا بواسطة الحصارات! ولكنّ أيّاً من ذلك كلّه لن يَحلَّ أيَّ مشكلةٍ أساسيّةٍ. فليس هناك من فائدةٍ تُرجى من التصدّي للعصيان نفسه. بل إنَّ ما يجب أن يتمّ التصدّي له هو **المعاناة** التي تُسبِّب العصيانَ. ذلك لأنَّ التصدّي للعصيان لا للمعاناة سيؤدّي إلى نتيجتَيْن سياسيّتَيْن سلبيّتَيْن على الأقلّ. فالجمهور الأميركيّ، أولاً، وهو جمهورٌ غارقٌ في المشاعر القوميّة [الضيِّقة] على نحوٍ مقلق، «سيسارع إلى الالتفاف من حول العَلَم» (كما يقولون) داعمًا حكومتَه أيّاً كانت بربريّةُ سياساتها. وسيكون الأميركيُّون أشدَّ عزمًا من أيّ زمن مضى على «حماية طريقة عيشنا،» دون أن يَسْألوا عن الثمن الذي ستَدْفعه بقيّةُ البشر على هذا الكوكب. وستهمَّش الحركاتُ الخجولةُ [المناهِضةُ للعولمة] التي انبثقتْ بعد سياتل، إنْ لم تُجرَّم.

وفي المقابل، سيُزَيَّن للملايين ممَّن هَزَمتهم الولاياتُ المتحدة وأذلَّتْهم وسَحَقَتْهم، هي والعالَمُ الذي تهيمِنُ عليه، أنْ يَرَوْا إلى الإرهاب سلاحًا أَوْحَدَ قادرًا حقّاً على ضرب الإمبراطوريّة الأميركيّة. ولهذا فإنَّ نضالاً سياسيّاً حقيقيّاً ـ لا عنفًا ـ ضدّ الهيمنة التي تمارسها ثقافيّاً واقتصاديّاً، وعسكريّاً قبل كل شيء آخر، أقليّةٌ ضئيلةٌ على الغالبيّة الساحقة من البشر، إنّما هو أمرٌ أكثرُ ضرورةً من أيّ زمن مضى.

بلجيكا

حوار مع نوم تشومسكي*

أجراه: دايفيد برسميان

كما تَعْلَم، هناك غضبٌ وغيظٌ وذهول في الولايات المتحدة منذ أحداث ١١ أيلول (سبتمبر). وقد حصلتْ أعمالُ قتلٍ واعتداءاتٌ على الجوامع [في الولايات المتحدة]، بل حصل اعتداءٌ على هيكلٍ للسِيخ. وفي جامعة كولورادو، التي تقع هنا في بولدور، وهي بلدةٌ معروفةٌ بليبراليَّتها، كانت ثمّة شعاراتٌ على الحائط تقول: «عودوا إلى بلادكم يا عرب!» «اقصفوا أفغانستان!» «عودوا إلى بيوتكم يا عبيدَ الرمال!» ما هو رأيُكَ في ما حصل منذ الاعتداءات الإرهابيَّة؟

مشاعري متضاربة. فما تَصِفُه قد حَصَلَ حقّاً. ولكنْ من جهة ثانية هناك تيّاراتٌ مضادّةٌ لما حدَثَ. فمثلاً أنا أَعْلم بوجود هذه التيّارات حيث أعيش ولي معارف، ولكنْ في جريدة **نيويورك تايمز** اليومَ كان ثمّة تقريرٌ عن المزاج الشعبيّ في نيويورك، بما في ذلك أماكنُ أقيمتْ فيها أنصابٌ تذكاريَّةٌ لضحايا الاعتداء الإرهابيّ على مركز التجارة العالميّ. ويشير التقرير إلى أنّ اليافطات التي تحضّ على السلام، والنداءات التي تدعو إلى التعقُّل، تفُوق إلى حدٍّ كبيرٍ النداءاتِ التي تَدْعو إلى الانتقام. كما يشير التقريرُ إلى أنّ مزاج الناس الذي شَملهم الحديثُ كان مختلطًا ما بين مؤيِّدٍ ومعارضٍ لاستخدام العنف، ولكنّه كان معارضًا بشكل عامّ. وهناك تيّارٌ آخر يؤيِّد الأشخاصَ الذي يتعرَّضون للاعتداءات هنا بسبب لونهم الداكن أو لأنّ أسماءهم غريبة. وهكذا تجد أنّ في أميركا تيّاراتٍ مضادّة. السؤال هو: ماذا بمقدورنا أن نَفْعل لنَجْعل التياراتِ الصحيحة تسُود؟

تبيَّن أنّ الإعلام يَفْتقر بوضوح إلى توفير سياقٍ وخلفيَّةٍ للاعتداءات على واشنطن ونيويورك. فما هي بعضُ المعلومات المفيدة التي تَسْتطيع أن توفِّرها أنتَ؟

هناك فئتان من المعلومات المفيدة بشكلٍ خاصّ، لأنّ ثمّة في الحقيقة مصدرَيْن للاعتداءات. فلنفترضْ أنّ هذه الأخيرة كانت مرتبطةً في أصولها بشبكة بن لادن. ففي هذه الحال نكون إزاء فئتين: الأولى هي شبكة بن لادن. والثانية هي **الناسُ** في تلك المنطقة من العالم. وهاتان فئتان منفصلتان، برغم وجود الروابط بينهما. ما يجب أن يكون في واجهة النقاش هو الفئتان معًا. بالنسبة إلى شبكة بن لادن أشُكّ أن أحدًا يَعْرفها أفضلَ من المخابرات المركزيَّة الأميركيَّة لأنّها كانت ذاتَ أثرٍ كبيرٍ في تشكيلها أصلاً. فهي شبكةٌ بدأتْ عام ١٩٧٩ إنْ أنتَ صدَّقْتَ زبيغنو بريزنسكي مستشارَ الرئيس كلينتون للأمن القوميّ. فقد قال، وربّما كان يتباهى فقط، إنّه في ذلك العام حَرَّض على تقديم دعمٍ سريٍّ «للمجاهدين» الذين كانوا يحاربون حكومة أفغانستان في محاولةٍ لجرّ الروس إلى ما سمّاه «الفخّ الأفغانيّ» ـ وهذا تعبيرٌ جديرٌ بالتذكّر.(١) وهو فخورٌ جداً بأنّهم وقعوا حقّاً في الفخ الأفغانيّ بإرسالهم قواتٍ عسكريَّةً لفرط الحكومة بعد ستّة شهور، وكانت نتيجةُ ذلك الغزو معروفةً. لقد قامت الولايات المتحدة، ومصرُ، والمخابراتُ الفرنسيَّة قلبًا وقالبًا، والسعوديةُ تمويلاً، وإسرائيلُ ضلوعًا، بتنظيم جيشٍ ضخمٍ من المرتزقة، يقدَّر بحوالى ٥٠ ألفًا، وجمّعوهم من أكثر الفئات التي وجدوها قتاليَّةً، وحَدَث أنْ كان هؤلاء من الإسلاميِّين الراديكاليِّين، الذين سمَّيْناهم هُنا «الأصوليِّين الإسلاميِّين،» وجاءوا بهم من كل أنحاء العالم، ومعظمُهم من خارج أفغانستان. اسمُهم «الأفغان» ولكنَّهم ـ شأنهم شأن بن لادن ـ ليسوا من أفغانستان.

بن لادن؟ كلامٌ سريعٌ عنه. كان ضالعًا في الشبكات الموَّلة، التي مازالت هي نفسها التي تعمل إلى الآن على الأرجح. وهي شبكات مدرَّبة ومسلَّحة ومنظَّمة بفضل وكالة المخابرات المركزيَّة الأميركيَّة والمخابراتِ الفرنسيَّة والمصريَّة وغيرها من أجل خوض حرب مقدّسة ضدّ الروس. وهذا ما فعله أعضاءُ تلك الشبكاتُ فعلاً. ثم دَفَعوا بالإرهاب إلى داخل الأراضي الروسيَّة. ولربّما أَخَّروا الانسحابَ الروسيّ من أفغانستان، على نحوٍ ما يعتقد عددٌ من المحلِّلين، ولكنّ أعمال [الإرهاب] تلك استمرَّت، وانسحب الروسُ لأسبابهم الخاصّة. ومع ذلك لم تتوقَّف أعمالهم. بل في عام ١٩٨١ قامت مجموعاتٌ تستند إلى هذه الشبكات نفسها باغتيال الرئيس السادات في مصر، وهو الذي كان ذا أثر كبير في تشكيلها أصلاً. وفي عام ١٩٨٣ قام أحدُ الانتحاريِّين بتفجير نفسه [في قاعدةٍ أميركيَّة] في لبنان، فكان ذلك عاملاً أساسيّاً في إخراج القوات العسكريَّة الأميركيَّة من هناك. وتواصلت العملياتُ مع ذلك.

بحلول عام ١٩٨٩ حين نجحتْ هذه الشبكاتُ في حربها المقدّسة في أفغانستان قالت لنا بكل صراحة إنّه ما إنْ تبني الولاياتُ المتحدةُ قاعدةً عسكريَّةً دائمةً في السعودية فستَعْتبر هذا شبيهًا بالاحتلال الروسيّ لأفغانستان. ثم أدارت تلك الشبكاتُ بنادقَها باتجاه الأميركان كما سبق أن فعلتْ عام ١٩٨٣ في لبنان. فهذه الشبكات تَعْتبر السعوديةَ عدوّاً أساسيّاً، وكذلك الأمرُ بالنسبة إلى مصر. وهي تريد الإطاحةَ بما تَعْتبره حكوماتٍ معاديةً للإسلام في كلا البلدين، وفي غيرهما من البلدان في الشرق الأوسط وشماليّ

---

* ـ خصّ الصديق دايفيد برسميان مجلةَ الآداب بالمقابلة التي أجراها مع تشومسكي في ٢٠ أيلول (سبتمبر)، أيْ قبل أن تُنْشر بالإنجليزيَّة في أيّ دوريَّة. فله الشكر والتقدير. (م)

١ ـ لا يَخْفى على اللبيب أنّه تعبير «جدير بالتذكّر» لأنّ تشومسكي يَعْتقد أنّه قد يكون فخّاً... للأميركان أيضًا. (م)

أفريقيا. وفي عام ١٩٨٧ قتلتْ تلك الشبكات حوالى ٦٠ سائحًا في مصر، ودمّرتْ قسمًا كبيرًا من السياحة المصريَّة. ثم واصلتْ نشاطاتها المسلَّحة في المنطقة بأسرها، في شماليّ أفريقيا وشرقِها وفي الشرق الأوسط، طوال سنوات.

هذه فئةٌ أولى، وهي ثمرةٌ للحروب الأميركيَّة في الثمانينيَّات، بل قبل ذلك الوقت، إنْ نحن صدَّقنا بريزنسكي، أيْ حين نَصَبَ [الأميركان] «الفخَّ الأفغانيَّ» للروس. وسنتحدَّث مطوّلاً عن هذه الشبكات، ولكنَّها فئةٌ واحدةٌ فحسب ممّا يَجْدر الحديثُ عنه.

وأمّا الفئة الثانية فهي الناس الذين يعيشون في تلك المنطقة من العالم. والفئتان مرتبطتان بالطبع؛ فشبكةُ بن لادن والشبكات الشبيهة الأخرى تَسْتقي دَعْمها مِنْ يأسِ الناس في تلك المنطقة ومِنْ غضبهم ومِن استيائهم. وهؤلاء الناس فيهم الغنيُّ وفيهم الفقيرُ. نَشَرتْ **وول ستريت جورنال**، وذلك ما يُسجِّل لصالحها، مقالات عدّة عن توجُّهات مسلمين أثرياء من أصحاب المصالح الكبيرة، ورجالِ أعمال ورجالِ مصارف ومهنيِّين وآخرين في منطقة الشرق الأوسط يَجْهرون صراحةً بالتعبير عن شجونهم. صحيح أنَّهم يُفْصِحُون عنها بشكلٍ أكثرَ تهذيبًا من الفقراء في الشوارع والأحياء، ولكنَّ المغزى واضح في الحالين. الجميع يَعْرف هؤلاء الناسَ. فهم أولاً غاضبون جدّاً للتأييد الأميركيّ للأنظمة القمعيَّة غيرِ الديموقراطيَّة في المنطقة، وغاضبون لإصرار الولايات المتحدة على عرقلة أيّ جهود لإيجاد مخارج ديموقراطيَّة. ولا شكَّ أنَّكَ سمعتَ على الراديو للتوّ (ويُخيَّل إليَّ أنَّ ناقلة الخبر هي «هيئةُ الإذاعة البريطانيَّة») تقريرًا يفيد بأنَّ الحكومة الجزائريَّة مهتمّة الآن بالمشاركة في هذه الحرب [الأميركيَّة المحتملة]. وقال المذيع إنَّه حدثتْ عملياتٌ إرهابيَّةٌ إسلاميَّةٌ كثيرةٌ في الجزائر، وهذا صحيح، ولكنَّه لم يَقُل الجانبَ الآخرَ من الحكاية: وهو أنَّ كثيرًا من أعمال الإرهاب كما يبدو هو من عمل الدولة الجزائريَّة نفسها. وثمّة براهينُ قويَّةٌ على ذلك. إنَّ الحكومة مهتمّة طبعًا بقمع أعدائها؛ بل الحقّ أنَّ سبب وجود الحكومة الجزائريَّة هو مَنْعُها في السابق إجراءَ انتخاباتٍ ديموقراطيَّةٍ خسرتْها هذه الحكومةُ لصالح الجماعات الإسلاميَّة أساسًا. وهذا هو ما أشْعل فتيلَ القتال الجاري. وهذه هي حالُ كثير من البلدان الأخرى في المنطقة.

كما اشتكى الناس في تلك المنطقة من أنَّ الولايات المتحدة مَنَعَت النموَّ الاقتصاديَّ المستقلّ بسبب «دَعْمها للأنظمة القمعيَّة.» وهذا هو التعبير الذي استخدموه. لكنّ الشكوى الرئيسيَّة التي ركّزتْ عليها مقالاتُ **وول ستريت جورنال** المذكورة، ويركّز عليها جميعُ مَنْ يَعْلم أيَّ شيءٍ عن المنطقة هناك أو يهتمُّ بأيّ شيء فيها، وهي شكوى آتيةٌ من أفواه المسلمين الأغنياء، وهم بالمناسبة مؤيِّدون للأميركان، إنَّما هي موجَّهةٌ إلى سياسات الولايات المتحدة

نصف مليون طفل عراقيّ ماتوا، ولكن أولبرايت تعتقد أنّ الهدف «حرزان!»

المزدوجة المتناقضة تناقضًا صارخًا في رأيهم، وهُمْ على حقّ، حيال العراق وإسرائيل. ففي حالة العراق تُواصِلُ الولاياتُ المتحدةُ وبريطانيا منذ عشرة أعوام تدميرَ المجتمع المدنيّ هناك. وعبارةُ مادلين أولبرايت الشهيرة، وهي أنَّ نصفَ مليون طفل عراقيّ ربّما ماتوا وأنَّ ذلك ثمن باهظ ولكنَّنا على استعداد لدفعه، لا تبدو سائغةً جدّاً لأناسٍ يأبهون حقّاً لمقتل نصف مليون طفل على يد الولايات المتحدة وبريطانيا. وفي هذه الأثناء تقوِّي هاتان الدولتان نظامَ صدّام حسين. هذا في حالة العراق.

أمّا في الحالة الثانية فإنَّ الولايات المتحدة هي الداعمُ الأوّل وقاعدةُ الإسناد للاحتلال العسكريّ الإسرائيليّ للأراضي الفلسطينيَّة الذي يَدْخل اليومَ عامَه الخامسَ والثلاثين. وقد كان هذا الاحتلالُ منذ أيّامه الأولى قاسيًا ووحشيّاً وبالغَ القمع. معظمُ هذه الأمور لا تناقَش هنا في الولايات المتحدة، ويتمّ التكتُّمُ على دور هذه البلاد [في استمرار الاحتلال الإسرائيليّ والقمع الإسرائيليّ]؛ فقد مَنَعت الولاياتُ المتحدة طوال ٢٥ سنة المبادراتِ الديبلوماسيَّةَ. بل يجري التكتُّم على حقيقة بسيطة وهي أنَّه مع بدء الأحداث في ٢٨ أيلول (سبتمبر) من العام الماضي بين الفلسطينيِّين وإسرائيل بدأتْ إسرائيل في اليوم التالي تَسْتخدم مروحياتٍ أميركيَّةً (لأنَّ إسرائيل لا تَسْتطيع أن تصنِّع مروحيَّاتٍ خاصَّةً بها) لمهاجمة الأهداف المدنيَّة. وخلال الأيام التي أعقبتْ ذلك قَتَلَتْ إسرائيل عشراتِ الأشخاص داخل شققهم. وبالمناسبة جرى القتالُ كلُّه في الأراضي المحتلّة، ولم يكن ثمةَ إطلاقُ نارٍ من قبل الفلسطينيِّين [في الأيام الأولى من الانتفاضة الثانية]، بل كان الفلسطينيُّون يَسْتخدمون الحجارة. إذن، نحن أمام شعب يرمي الحجارةَ ضدّ المحتلِّين العسكر ـ وهذه مقاومةٌ مشروعةٌ بحسب كلّ المعايير الدوليَّة.

في ٣ تشرين الأول (أكتوبر) عام ٢٠٠٠ أَبْرَمَ كلينتون أكبرَ صفقةٍ خلال ذلك العقد حين أَرْسل مروحيّاتٍ عسكريَّةً هجوميَّةً جديدةً إلى

إسرائيل. وتَواصَلَ إرسالُ هذه المروحيّات خلال الشهور القليلة اللاحقة. وهذا أمرٌ لم تُورِدْه وسائلُ الإعلام، ولا تورده الآن بحسب علمي. ولكنّهم [الفلسطينيّين] يَعْرفون ذلك. إنّهم يَنْظرون إلى السماء ويَرَوْن مروحياتٍ هجوميّةً آتيةً، ويَعْرفون أنّها مروحيّات هجوميّة أميركيّة أُرْسلتْ لهذا الغرض. وما هي إلاّ أسابيع حتى بدأ الإسرائيليّون يستخدمونها للاغتيالات. هنا أَصْدرت الولاياتُ المتحدةُ بعضَ التأنيبات، ولكنّها أَرْسلت المزيدَ من المروحيّات. في غضون ذلك يتواصل الدّعمُ الأميركيُّ لسياسات الاستيطان، التي انتزَعَتْ مساحاتٍ ضخمةً من الأراضي الفلسطينيّة وصُمِّمتْ لتحُولَ عمليّاً دون نموّ دولة فلسطينيّة ممكنة. فالولايات المتحدة توفِّر الدعمَ الماليَّ والدعمَ الديبلوماسيَّ. إنّها الدولةُ الوحيدةُ التي وقفتْ في وجه الإجماع الدوليّ الكاسح الشاجب لهذه السياسات بمقتضى اتفاقيّات جنيف. فالحقّ أنّ كلّ الدول باستثناء الولايات المتحدة دانت هذه السياسات... والأمر يزداد سوءًا؛ إنّه احتلال عسكريّ بالغُ الشدّة.

إنْ كان لي أن ألخّص النقاطَ الثلاثَ التي أَعْتقد أنّك تقولُها، وربّما أردتَ أن تزيد عليها شيئًا بعد ذلك، فإنّه يَبْدو أولاً أنّ الوجود العسكريّ الأميركيّ في السعودية هو محرِّضٌ أساسيٌّ لبعض الأشخاص الذين يُزْعَمُ أنّهم وراء اعتداءات واشنطن ونيويورك. المحرِّضُ الثاني هو القصف الأميركيّ ـ البريطانيّ المتواصل للعراق، والعقوباتُ المستمرّةُ منذ ١٠ سنوات ضدّ هذا البلد. المحرِّضُ الثالثُ هو الدّعم الأميركيّ الهائل للاحتلال العسكريّ الإسرائيليّ لفلسطين. أثمّة محرِّضاتٌ أخرى؟

هناك محرِّضات كثيرةٌ أخرى. المحرِّضُ الرابع هو أنّ الولايات المتحدة دَعَمَتْ وتَدْعم أنظمةً قمعيّةً سلطويّةً قاسيةً تحُول دون نجاح المبادرات الديموقراطيّة. فمثلاً ما ذكرتُه عن الجزائر، أو ما يَحْدث في تركيا، أو على امتداد شِبْهِ الجزيرة العربيّة. كلُّ نظامٍ قمعيٍّ وحشيٍّ قاسٍ مدعومٌ من الولايات المتحدة. وهذا يَنْطبق على نظام صدّام حسيْن أيضًا.

فلنأخذْ مثالاً صادمًا. في آذار (مارس) ١٩٩١، بعيْد حرب الخليج، ووسط سيطرةٍ أميركيّةٍ تامّةٍ على الأجواء هناك، حَدَثَ تمرُّدٌ في جنوبيّ العراق قام به ضبّاط عراقيُّون. وكان واضحًا أنّهم أرادوا الإطاحةَ بصدّام حسيْن. لم يَطْلبوا دعمًا من الولايات المتحدة، بل مجرّدَ الحصول على بعض الأسلحة العراقيّة [التي صادرتْها الولاياتُ المتحدة أثناء حرب الخليج]، ولكنّ الولايات المتحدة رفضتْ ذلك. بل أجازت بشكل ضمنيّ لصدّام حسين أن يَسْتخدمَ سلاحَ الطيران لسَحْق التمرُّد. وأُعطيت الأسباب: فبحسب تعبير توماس فريدْمان، وهو مراسلُ الشؤون الديبلوماسيّة في **نيويورك تايمز**، أثرت الولاياتُ المتحدة بوضوحٍ وباستحسانٍ ديكتاتوريّةً عسكريّةً في العراق ذاتَ قبضةٍ حديديّةٍ لصالح ما أَسْمته «الاستقرار» على تمرُّدٍ شعبيّ تمّ في النهاية سحقُه. ربّما لم يُرِد الناسُ هنا أن يَنْظروا إلى حقائق الأمور، ولكنّها كانت منشورةً على الصفحات الأولى من الجرائد. وما ذكرتُه هو مثالٌ واحدٌ فحسب. وهناك أمثلة شبيهة على امتداد المنطقة. لهذا يَشجب أصحابُ المصارف ورجالُ الأعمال المؤيِّدون لأميركا الولاياتِ المتحدةَ لدَعْمها الأنظمةَ غيرَ الديموقراطيّة ولوقفِ النموّ الاقتصاديّ في هذه البلاد.

حَدِّثْنا عن العلاقة ما بين الغاية والوسيلة. لنقلْ إنّ لديْكَ هدفًا نبيلاً، وتريد أن تَسُوق مرتكبي الجرائم الإرهابيّة المروِّعة إلى العدالة. فما هي الوسيلة لبلوغ هذه الغاية؟

لنَفْترضْ أنّكَ تريد أن تَسُوق رئيسًا من رؤساء الولايات المتحدة إلى العدالة، لأنّه مسؤول عن أعمال إرهابيّة مروِّعة. ثمّة طريقةٌ للقيام بذلك. بل هناك سابقة. فنيكاراغوا في الثمانينيّات تعرّضتْ لهجوم أميركيٍّ عنيف، ومات عشراتُ آلاف الأشخاص من جرّائه، ودُمِّرت البلادُ إلى حدٍّ كبير وقد لا تستعيد عافيتَها قطّ، ومآسيها أسوأُ بكثيرٍ من المآسي التي ضَرَبَتْ نيويورك ذلك اليومَ [١١ أيلول]. لكنّ النيكاراغويّين لم يفجِّروا قنابلَ في واشنطن، وإنّما ذهبوا إلى المحكمة الدوليّة التي أصدرتْ حُكْمًا لصالحهم يَدين الولاياتِ المتحدة لما أسمته تلك المحكمة «استخدامَ القوّة استخدامًا غيرَ شرعيّ»، وهو ما يَعْني إرهابًا دوليّاً. وأمَرَت المحكمةُ الولايات المتحدة بالكفّ عن أعمالها وبدفْع تعويضاتٍ كبيرةٍ لنيكاراغوا. ولكنّ الولايات المتحدة رفضتْ قرار المحكمة باحتقار. فذهبتْ نيكاراغوا من ثمّ إلى مجلس الأمن الدوليّ، الذي أَقرّ مشروعَ قرارٍ يطالب الولايات المتحدة باحترام القانون الدوليّ. لكنّ الولايات المتحدة مارستْ حقّ النقض (الفيتو). فذهب النيكاراغويُّون إلى الجمعيّة العامّة للأمم المتحدة، حيث استحصلوا على قرارٍ مماثل صُدِّق بشبه إجماع باستثناء معارضة الولايات المتحدة وإسرائيل. تلك هي الوسيلة التي يَنْبغي اتّباعُها. ولو كانت نيكاراغوا قويّةً بما يَكْفي لكان بإمكانها إنشاءُ محكمةٍ جزائيّةٍ أخرى. تلك هي الإجراءات التي كان باستطاعة الولايات المتحدة أن تَسْلكها [للقبض على إرهابيّي الأحداث الأخيرة]، ولن يكون ثمّة مَنْ يَمْنعها مِنْ فعلِ ذلك. وهذا هو ما يَطْلبه الناسُ منها في كافة أنحاء تلك المنطقة، بما في ذلك حلفاؤها.

تذكَّرْ أنّ الحكومات في الشرق الأوسط وشماليّ أفريقيا، مثلها مثل الحكومة الجزائريّة التي هي أكثرُ تلك الحكومات وحشيّةً، ستكون سعيدةً بأن تشاركَ الولايات المتحدة مقاومتَها للشبكات الإرهابيّة التي تهاجمها؛ فهذه الحكومات هي الهدف الأساسيّ للشبكات المذكورة. ولكنّ الحكومات تلك تريد بعضَ الأدلّة، وتريد أن تقوم بتلك المشاركة في إطارٍ من الالتزام بالقانون الدوليّ وإنْ في حدِّه الأدنى. والحال أنّ الموقف المصريّ غريبٌ حقّاً. فالمصريُّون جزءٌ من

الجهاز الأساسيّ الذي نَظَّمَ شبكةَ بن لادن، وكانوا هم أوائلَ ضحاياه عند اغتيال السادات، وهم منذ ذلك الحين مِنْ بين ضحاياه الأساسيِّين، ولذلك يودّون لو يَسْحقون تلك الشبكات، ولكنَّهم يقولون سَنَفْعل ذلك بعد ورود بعض الأدلّة على أسماء المنخرطين [في أحداث ١١ أيلول] ومن ضمن إطار ميثاق الأمم المتحدة، وبرعاية مجلس الأمن. وهذه طريقةٌ يمكن [للأميركيِّين] اتّباعُها أيضًا.

أتَعْتقد أنَّ الانخراطَ في تحالفاتٍ مع ما يُسمّى «شخصيّاتٍ بغيضةً،» ومع مهرّبي مخدِّرات وسفّاحين، من أجل تحقيق ما يُقال إنّه هدفٌ نبيل، أمرٌ أكثرُ من إشكاليّ؟

تذكَّرْ أنَّ أكثر الشخصيّات الجديرة بالبغض هي حكوماتُ تلك المنطقة، وحكومتُنا نحن وحلفاؤها، إنْ كنّا جادّين حقّاً. عليكَ أن تسأل: ما هو الهدفُ النبيل؟ أكانَ هدفًا نبيلاً دَفْعُ الروس إلى فخٍّ أفغانيّ عام ١٩٧٩، كما ادّعى بريزنسكي أنّه فعل؟ إنَّ دعم المقاومة الأفغانيّة ضدّ الغزو الروسيّ شيء، وتنظيمَ جيشٍ إرهابيٍّ من المتعصِّبين الإسلاميِّين من أجل أهدافكَ الخاصّة شيءٌ مختلف. السؤال الذي علينا أن نَطْرحه الآن هو: ماذا بشأن التحالف الذي يُبْنى الآن، أي التحالف الذي تحاول الولاياتُ المتحدةُ تركيبَه؟ علينا ألاّ نَنْسى أنَّ الولايات المتحدة نفسها هي دولةٌ إرهابيّةٌ طليعيّة! فماذا عن التحالف بين الولايات المتحدة وروسيا والصين وأندونيسيا ومصر والجزائر، وكلُّها مبتهجةٌ لرؤية نشوء نظامٍ دوليٍّ برعاية الولايات المتحدة يُجيز لها ارتكابَ فظاعاتٍ إرهابيّةٍ بحقّ مواطنيها؟ روسيا، مثلاً، ستكون سعيدة جداً بالحصول على دعمٍ أميركيٍّ لها في حربها في الشيشان. فهناك أفغان شبيهون [بالمجاهدين في أفغانستان] يحاربون ضدّ روسيا.

وربّما ستكون الهندُ هي الأخرى سعيدةً جداً.

نعم. وستكون أندونيسيا أيضًا مبتهجةً بتلقّي دعمٍ أميركيّ لمجازرها في «آسِه» [شمال غرب أندونيسيا]. والجزائر، كما أُعلِن منذ قليل، ستكون هي أيضًا مبتهجةً بالحصول على إجازة بإطالة إرهاب الدولة الذي تمارسه. ويَنْطبق هذا الأمرُ على عدد كبير من الدول في العالم.

إنّ تعليقَكَ بأنَّ الولايات المتحدة «دولةٌ إرهابيّةٌ طليعيّة» قد يَصْعق عددًا كبيرًا من الأميركيِّين. أتستطيع أن تفصِّل ذلك؟

لقد سبق أن ذكرتُ مثالاً واحدًا. فالولايات المتحدة هي البلد الوحيد الذي دِينَ بالإرهاب الدوليّ من قِبل المحكمة الدوليّة، ورَفَضَ قرارًا من مجلس الأمن يَدْعو إلى احترام القانون الدوليّ.

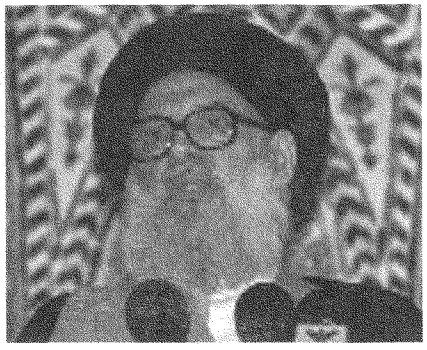

إدارة ريغان قامت بتفجير إرهابيّ في بيروت عام ١٩٨٥ فقتلت ٨٠ شخصًا لأنّها لم تحبّ رجل دين مسلمًا

ومازالت الولاياتُ المتحدة تواصل الإرهاب الدوليّ ـ وهذا أهونُ ما تفعله. الجميعُ هنا كان ساخطًا، وبحقّ، على التفجير في مدينة أوكلاهوما. ولعدّة أيام كانت عناوينُ الصحف تقول ما معناه: «مدينة أوكلاهوما تُشْبه بيروتَ بسبب [ما فعله] العربُ بها.» ولكنّني لم أرَ أيَّ واحدٍ يشير إلى أنَّ «بيروت أيضًا تُشْبه بيروت!» والسببُ في ذلك جزئيّاً هو أنَّ إدارة ريغان قامت بتفجيرٍ إرهابيّ هناك عام ١٩٨٥ يُشْبه كثيرًا ما حَصَلَ في مدينة أوكلاهوما، وكان عبارةً عن تفجير شاحنةٍ خارج أحد المساجد موقّتةٍ بحيث تَقْتل أكبرَ عددٍ من المصلِّين عند خروجهم، فقتلتْ ٨٠ شخصًا وجَرَحتْ ٢٠٠ آخرين. وكانت الشاحنة المفخّخة تَسْتهدف رجلَ دينٍ مسلمًا [هو العلاّمة محمد حسين فضل الله] لم تَكُن الولاياتُ المتحدة تحبّه ولكنّها أخطأته. ولم تكن هذه الحادثة بالأمر السرِّي جداً.(١)

أنا لا أعْلم ما تسمِّي الهجومَ الذي قَتَلَ ربما مليونَ مدنيٍّ في العراق، وربّما نصفَ مليون طفلٍ عراقيّ، وهذا هو الثمن الذي قالت وزيرةُ الخارجيّة السابقة إنّنا على استعداد لدفعه. أثمة اسمٌ لهذا العمل؟ أثمة اسمٌ لدعم الفظائع الإسرائيليّة؟ مثال ثالث: دَعْمُ أميركا لتركيا في سحق سكّانها الأكراد أنفسهم، وهو سحقٌ قدّمتْ له إدارةُ كلينتون الدعمَ الحاسمَ، أيْ ٨٠٪ من الأسلحة، وتصاعَدَ مع تصاعُدِ الفظائع التركيّة.

مثال رابع: قصفُ السودان. ثمّة هامش صغير وضئيلٌ هنا، إلى درجة أنَّ أحدًا لم يَذْكره وإنْ مجرَّد ذِكْر: فما تراه يَشْعر الأميركانُ لو نُسِفَ نصفُ الأدوية في الولايات المتحدة، مع أنَّ هذه ليست مقارنةً عادلةً لأنّ السودان بلدٌ فقيرٌ لا يَسْتطيع أن يسدَّ النقصَ في تلك الأدوية؟ لا أحد يدري كم عشرات من الآلاف ماتوا بسبب ذلك. لو فَعَل قومٌ مثلَ هذا في الولايات المتحدة، لكنّا على الأرجح دَعَوْنا إلى قصفهم بالسلاح النوويّ؛ لكنّنا في حالة السودان قلنا: «آه، حسنًا، هذا أمرٌ مؤسف جداً، فلننتقلْ إلى موضوع آخر.» غير أنَّ الآخرين في العالم لا يَسْتجيبون للأحداث هكذا.

---

١ ـ كَشَفَتْه، على ما أظنّ، صحيفةُ **واشنطن بوست** بعد فترة من الزمن. (م)

في كتابكَ ثقافة الإرهاب تَكْتب أنّ «المشهد الثقافيّ مضاءٌ بوضوح مميَّز بفضلِ أفكار الحمائم الليبراليَّة الذين يَرْسمون تخومَ الانشقاق الجديرِ بالاحترام.» كيف تقوِّم تصرُّفَ هؤلاء منذ أحداث ١١ أيلول (سبتمبر)؟

فلنأخذْ مثالاً محسوسًا لأنّني لا أحبّ التعميم. في ١٦ أيلول نشرتْ **نيويورك تايمز** طلبَ الولايات المتحدة من باكستان قَطْعَ المساعدات الغذائيَّة عن أفغانستان. كان ذلك القطعُ قد تمَّ قبلَ أيّام، ولكنّ الطلب جاء صريحًا الآن: قطعُ الطعام الذي كان يُبقي ملايينَ من الناس ربّما بعيدين قليلاً عن حافة الموت جوعًا. وأَفْترض أنَّ الولايات المتحدة إذا أعطت الأوامرَ فإنَّ باكستان ستنفِّذها. ماذا يعني هذا؟ يَعْني أنَّ عددًا غيرَ محدَّد من الناس، ربّما الملايين من الأفغان المتضوِّرين جوعًا، سيموتون. أهؤلاء من «الطالبان؟» لا، هم ضحايا الطالبان. كثيرٌ منهم هُجِّروا من مكان إلى مكان داخل أفغانستان ومُنِعوا من مغادرتها. لكنّ الطلب الأميركيّ يقول: «حسنًا، لنَمْضِ إلى قتل عدد غير محدَّد من الناس، ربّما الملايين من الأفغان المتضوِّرين جوعًا الذين هم ضحايا الطالبان.» فماذا كانت ردودُ الفعل؟

لقد أمضيتُ اليوم الذي أَعْقب ذلك الطلب وأنا أتحدَّث على الراديو والتلفزيون في عدّة أنحاء من العالم. وواصلتُ إثارة هذا الموضوع. غير أنَّ أحدًا في أوروبا أو الولايات المتحدة لم يَسْتطع أن يفكِّر في الردّ بكلمة واحدة. في حين كانت هناك ردودُ أفعالٍ كثيرة في بقيّة أنحاء العالم، بما في ذلك في محيط أوروبا مثل اليونان. كيف تردّ على ذلك؟ تصوَّرْ لو كانت ثمّة قوةٌ من الجبروت بحيث تقول: «لنفعلْ شيئًا يسبِّب مقتلَ مليون أميركيّ جوعًا»؛ أكنتَ ستظنّ أنَّ هذه مشكلة خطيرة؟

الإذاعة الأميركيَّة العامَّة (ناشونال پابليك راديو)، التي شَجَبتْها إدارةُ ريغان في الثمانينيَّات بوصفها «إذاعة ماناغو على ضفاف الپوتوماك،»* تُعتبر هي أيضًا عند نهاية الطيف الليبراليّ من النقاش الأميركيّ الجدير بالاحترام. في ١٧ أيلول (سبتمبر) سألَ نُوَا أدامز، وهو المضيف في برنامج «كل الأمور في الاعتبار،» أسئلةً من نوع: أيجب أن يُسمح بالاغتيالات؟ أيَنْبغي أن تُعطى وكالةُ المخابرات المركزيَّة الأميركيَّة هامشًا أوسعَ للحركة؟

يجب ألاّ يُسمح لهذه المخابرات بالقيام بأعمال الاغتيال. لكنّ هذا هو أقلّ ما يجب أن نُطالِبَ به. أيَنْبغي أن يُسمح لهذه المخابرات بتجهيز سيّارة مفخَّخة في بيروت كما سبق أن وصفتُ؟ فذلك لم يَنْتهك [في نظر الأميركان] أيَّ قانون. وهو لا يَقْتصر على هذه المخابرات وحدها. أوَكان يَنْبغي أن يُسمح بتنظيم جيشٍ إرهابيٍّ في نيكاراغوا مهمتُه الرسميَّة ـ كما جاء بالحرف على لسان وزارة الخارجيَّة الأميركيَّة ـ مهاجمةُ «الأهداف الطريّة» أي التعاونيات الزراعيَّة والعيادات الصحيَّة؟ ما ترانا نسمِّي ذلك؟ أوَكان يَنْبغي أن يُسمح ببناء شيء مثل شبكة بن لادن، لا باسمه هو نفسه، بل الشبكة الخلفيَّة التي يَسْتند إليها؟ أوَيَنْبغي أن يُسمح للولايات المتحدة بتقديم مروحيّات حربيَّة لإسرائيل من أجل القيام باغتيالات سياسيَّة؟ إنّ مَنْ فعل ذلك ليس المخابرات الأميركيَّة في الواقع، بل إدارةُ كلينتون نفسُها.

أَتَسْتطيع باختصارٍ شديدٍ أن تحدِّدَ الأسبابَ السياسيَّةَ للإرهاب، وكيف تُدْرَج في النظام العقيديّ الأميركيّ؟

الولايات المتحدة ملتزمة رسميّاً ما يُسمَّى «الحروبَ المنخفضةَ الحدّة» low-intensity warfare. هذه هي العقيدة الرسميَّة. فإذا أنتَ قرأتَ تعريفَ هذا المصطلح في كتيّبات الجيوش، ثمّ قابَلْتَه بتعريف الولايات المتحدة للإرهاب، وجدتَ أنَّ التعريفيْن يكادان أن يتطابقا. فالإرهاب هو استخدامُ الوسيلة القاهرة الموجَّهة إلى السكّان المدنيِّين في مسعى لتحقيق أهدافٍ سياسيَّةٍ أو دينيَّةٍ أو غيرِ ذلك. وهذا يَنْطبق على تفجيرات مركز التجارة العالميّ في ١١ أيلول. ولكنَّه أيضًا العقيدةُ الرسميَّةُ الأميركيَّةُ. لقد ذكرتُ بضعةَ أمثلة. ونَسْتطيع أن نَذْكر أمثلةً أخرى إلى ما لا نهاية: فالإرهابُ، ببساطة، جزءٌ من أعمال هذه الدولة [أميركا].

على هذه الأمور جميعها أن تُعرَفَ جيِّدًا. ومن المعيب أنّ الحال ليست كذلك. على كلِّ مَنْ يريد أن يَعْرف هذه الأمور أن يقرأ كتابًا يضمّ مجموعةً من المقالات نَشَرَها قبل عشرة أعوام ناشرٌ كبيرٌ، وعنوان الكتاب: **إرهاب الدولة الغربيّة**، وهو يَسْتعرض الكثيرَ من الحالات. إنّ هذه أمورٌ يَنْبغي على الناس أن يعرفوها إنْ كانوا يريدون أن يَفْهموا شيئًا عن أنفسهم.

كولورادو

* ـ ماناغوا عاصمة نيكاراغوا. وپوتوماك نهرٌ في واشنطن دي سي. (م)

إرهابهم وإرهابنا*

إقبال أحمد

في الثلاثينيّات والأربعينيّات من القرن العشرين كانت المنظّمات السريّة اليهوديّة في فلسطين تُنْعت بأنّها «إرهابيّة.» ثم حصلتْ أمور جديدة. فمع حلول عام ١٩٤٢ كانت الهولوكوست تجري على قدمٍ وساق، ويتشكّل نوعٌ من التعاطف الليبراليّ الغربيّ مع الشعب اليهوديّ. وفجأةً بات الإرهابيُّون اليهود في فلسطين، الذين كانوا صهاينةً، يوصفون مع حلول عاميْ ١٩٤٤ و١٩٤٥ بـ «المقاتلين من أجل الحريّة.» لقد كان رئيسا وزراء إسرائيليّان على الأقلّ، من بينهما مناحيم بيغن، يوصفان بالإرهابيَّيْن. وتستطيعون أن تجدوا في بعض الكتب ملصقاتٍ تَحْمل صورةَ كلّ منهما مذيّلةً بعبارة: «إرهابيّ. جائزة كذا لِمَنْ يَقْبض عليه.» وكان أعلى مبلغ اطّلعتُ عليه مكافأةً لمن يأتي برأس الإرهابيّ مناحيم بيغن هو ١٠٠ ألف جنيه إسترلينيّ.

ولكنْ بين عامَيْ ١٩٦٩ و١٩٩٠ احتلّت منظمةُ التحرير الفلسطينيّة مسرحَ الأحداث بوصفها منظمةً إرهابيّةً. ووَصَفَ ويليام سافاير، وهو حكيمُ الصحافة الأميركيّة من جريدة **نيويورك تايمز**، ياسر عرفات مرارًا وتكرارًا بأنّه «زعيم الإرهاب.» لكنْ في ٢٩ أيلول (سبتمبر) ١٩٩٨ سلاّني إلى حدٍّ ما أن أرى صورةً لياسر عرفات إلى يمين الرئيس بيل كلينتون، وإلى يساره رئيسُ الوزراء الإسرائيليّ بنيامين ناتانياهو. كان كلينتون يَنْظر باتجاه عرفات، وكان عرفات يبدو ـ حَرْفيّاً ـ أشبهَ بفأرٍ خنوع. قبل بضع سنوات كان عرفات قد اعتاد الظهور بهيئة متوعّدة وبمسدّس مربوط إلى حزامه ذي هيئة متوعّدة هو أيضًا. أنتم تَذْكرون تيْنك الصورتَيْن، وستَذْكرون الصورةَ التالية.

ففي عام ١٩٨٥ استقبل الرئيس رونالد ريغان مجموعةً من الرجال المُلْتحين. كنتُ في تلك الأيام قد كتبتُ عن هؤلاء الرجال في جريدة **نيويورك تايمز**. كانوا رجالاً ملتحين ذوي هيئاتٍ ضارية، يَعْتمرون عماماتٍ فيَبْدون وكأنّهم جاءوا من قرنٍ آخر. استقبلهم الرئيس ريغان في البيت الأبيض، ثم تحدّث إلى الصحافة، فأشار إليهم ـ وأنا على يقين أنّ بعضكم سيَذْكر تلك اللّحظة ـ وقال: «هؤلاء هم المعادِلون الأخلاقيُّون لآباء أميركا المؤسِّسين.»[1] هؤلاء الرجال كانوا المجاهدين الأفغان! آنذاك كانوا يحاربون، وسلاحُهم في أيديهم، «إمبراطوريّةَ الشرّ» [الاتّحادَ السوفياتيّ]. لقد كانوا المعادِلين الأخلاقيّين لآبائنا المؤسِّسين!

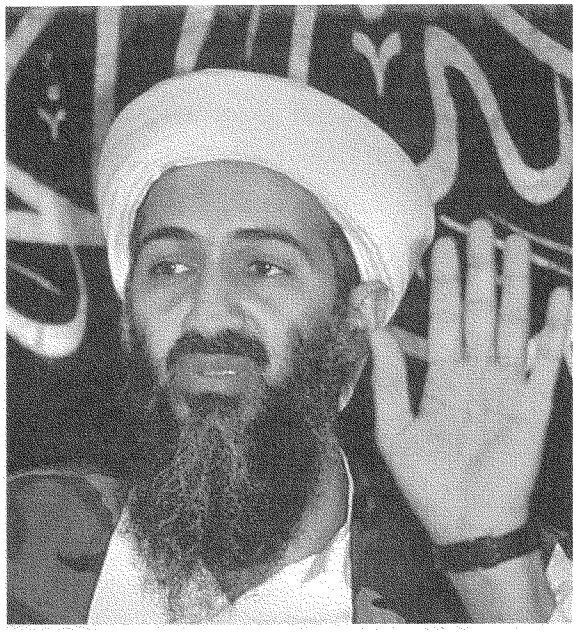

كان بن لادن عام ١٩٨٥ المعادل الأخلاقيّ في أميركا لجورج واشنطن وتوماس جيفرسون!

في آب (أغسطس) ١٩٩٨ أمَرَ رئيسٌ أميركيٌّ آخر بقصفٍ صاروخيٍّ من البحريّة الأميركيّة المتمركزة في المحيط الهنديّ بهدف قتل أسامة بن لادن ورجاله في معسكرات أفغانستان. ولا أحبّ أن أُحْرِجكم بأن أذكّركم بأنّ السيّد بن لادن، الذي أُطلق عليه ١٥ صاروخًا أميركيّاً أُرْسلتْ إلى أفغانستان، كان قبل أعوام قليلة فقط من هذه الحادثة المعادلَ الأخلاقيَّ لجورج واشنطن وتوماس جيفرسون. ولكنّه غَضِبَ لأنّه أُسْقِطَ من مرتبة المعادِل الأخلاقيّ لآبائكم المؤسِّسين، فراح يُفْرغ غضَبه بطرق مختلفة. وسأعود إلى هذا الموضوع بشكلٍ أكثر جديّةً بعد لحظات.

خصائص المقاربة الرسميّة للإرهاب

هكذا ترون أنّني استحضرتُ كلَّ هذه الحكايات لأبيّن لكم أنّ مسألة الإرهاب مسألةٌ معقّدةٌ إلى حدٍّ ما. فالإرهابيُّون يتبدّلون؛ وهذه هي الخاصيّة **الأولى** للمقاربة الرسميّة للإرهاب: ذلك أنّ إرهابيَّ الأمس بطلُ اليوم، وبطلَ الأمس إرهابيُّ اليوم. وهذا أمرٌ خطير في عالم الصُّوَر المتغيِّرة دومًا، عالمٍ علينا أن نحافظ فيه على رجاحة عقولنا كي نَعْلم ما الإرهابُ وما ليس بإرهاب، وكي نَعْلم ـ وهذا هو الأهمّ ـ أسبابَ الإرهاب وكيف نُوقفه.

النقطة المهمّة **الثانية** هي أنّ الموقف الرسميّ المتناقض يَتَجنّب التعريفات بالضرورة. فإذا لم تكن تَنْوي أن تكون منسجمًا مع

---

* ـ محاضرة بالإنكليزيّة، بعثها إليّ الصديق دايفيد برسميان، للكاتب الباكستانيّ العظيم إقبال أحمد (توفّي في إسلام آباد في ١١ أيار ١٩٩٩). وقد ألقاها في جامعة كولورادو في بولدر في ١٢ تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٩٨. والآداب تترجم محاضرة أحمد بعد ثلاثة أعوام على إلقائها لأنّها تسلّط الضوءَ على ذهنيّة «الإرهاب» ذي الصلة الوثيقة بالولايات المتحدة، وعلى شخصيّة بن لادن الذي التقاه إقبال شخصيّاً. (م)

١ ـ آباء أميركا المؤسِّسون: مندوبو الولايات عند اجتماعهم لتوقيع «الميثاق الدستوريّ» في فيلادلفيا عام ١٧٨٧.

نفسكَ فإنَّكَ لن تَسْتخدم التعريفات. ولقد فَحَصْتُ ٢٠ وثيقةً أميركيَّة رسميَّة عن الإرهاب، ليس ثمّة واحدةٌ منها تعرِّف هذه الكلمة. كلُّها تَشْرح الإرهابَ، تعبِّر عنه بشكل انفعاليّ وسِجاليّ من أجل استثارة عواطفنا بدلاً من ممارسة ذكائنا. سأعطيكم مثالاً واحدًا نموذجيّاً فقط. ففي ٢٥ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٨٤، تحدَّث جورج شولتز في كنيس پارك آڤنيو في نيويورك، وكان يومَها وزيرَ خارجيَّة الولايات المتحدة. كان خطابه طويلاً عن الإرهاب. وفي نشرة وزارة الخارجيَّة عن الإرهاب، وهي من سبع صفحات لا فراغَ بين سطورها، ليس ثمَّة تعريفٌ واحدٌ للإرهاب. كلُّ ما نَعْثر عليه هو التالي: «الإرهاب بربريَّةٌ حديثةٌ نسمِّيها الإرهاب!» هذا هو التعريف رقم واحد. وأمّا التعريف رقم ٢ فَأَلْمَعُ من سابقه: «الإرهاب شكل من أشكال العنف السياسيّ.» ألستم مدهوشين؟ إنَّه شكلٌ من أشكال العنف السياسيّ، على حدّ قول جورج شولتز وزيرِ خارجيَّة الولايات المتحدة! التعريف الثالث هو: «الإرهاب تهديدٌ للحضارة الغربيَّة.» التعريف الرابع: «الإرهاب خَطَرٌ على القيم الروحيَّة الغربيَّة.» ألاحَظْتم؟ أتُخْبِرُكُمْ هذه التعريفاتُ أيَّ شيء باستثناء إثارة عواطفكم؟ إنَّهم لا يعرِّفون الإرهابَ لأنَّ التعريفات تتطلَّب التزامًا بالتحليل، وبالإدراك الواعي، وبالتقيُّدِ بمعايير ما من التماسك المنطقيّ. وهذه هي الخاصّيَّةُ الثانيةُ للأدبيّات الرسميَّة عن الإرهاب.

الخاصيَّة **الثالثة** هي أنَّ غياب التعريفات لا يَمْنع المسؤولين الرسميِّين من أن يعمِّموا ليَشْملوا العالَمَ بأجمعه. فهم قد لا يعرِّفون الإرهاب ولكنَّهم مع ذلك يعتبرونه تهديدًا للقيم الأخلاقيَّة في الحضارة الغربيَّة، بل تهديدًا للبشريَّة وللنظام القويم، ولهذا يجب أن نَسْحقه في جميع أنحاء العالم. إنَّ على انتشارنا، كما يقولون، أن يطول العالَمَ، من أجل أن نَقْتل الإرهابَ. وفي خطاب شولتز نفسه يجيء ما يلي: «ليس هناك شكٌّ في قدرتنا على استخدام القوّة حيث ومتى تُحتاج من أجل مواجهة الإرهاب.» إذن، ليس هناك حدّ جغرافيّ لمكافحة الإرهاب. وفي يومٍ واحدٍ ضَرَبَت الصواريخُ أفغانستانَ والسودانَ معًا. هذان البلدان يَبْعدان ٢٣٠٠ ميل الواحدُ منهما عن الآخر، ولكنَّهما قُصِفا بصواريخ يَمْلكها بَلَدٌ يَبْعد حوالى ٨ آلاف ميل.

الخاصيَّة **الرابعة**: مزاعمُ الأقوياء تَشْمل العالَمَ، وهي كليَّةُ المعرفة أيضًا. فلسانُ حالهم: نحن نَعْرف أين هم الإرهابيُّون، ولذلك نَعْرف أين نَضْربهم. لدينا الوسائلُ لنَعْرف ذلك. لدينا أدواتُ المعرفة. نحن عَليمون. يقول شولتز: «نحن نَعْرف الفرقَ بين الإرهابيِّين والمقاتِلين من أجل الحريّة، وحين نتطلّع من حولنا لا مشكلةَ لدينا في تمييز هؤلاء عن أولئك.» وحده أسامة بن لادن لا يَعْرف أنَّه كان حليفًا للأميركان ذاتَ يوم، ثم بات عدوّاً لهم في يومٍ تالٍ؛ فهذا أمرٌ يُربِكُ بن لادن كثيرًا! وسأعود إلى قصّته عند نهاية حديثي، وهي قصّة حقيقيَّة.

الخاصيَّة **رقم ٥** للمقاربة الرسميَّة للإرهاب: هذه المقاربة تتحاشى السببيَّة. فهي تقول إنَّه ليس عليكَ أن تَنْظر إلى أسباب صيرورة المرء إرهابيّاً. أسباب؟ أيَّة أسباب؟ ذلك أنّ هذه الأسباب ستستدعي أن نَنْظر إلى هؤلاء الناس الإرهابيِّين وأن نتعاطفَ معهم. هاكم مثالاً آخر. أوردتْ صحيفة **نيويورك تايمز** في ١٨ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٥ أنَّ وزير خارجيَّة يوغوسلافيا ـ أتَذْكرون حين كان ثمَّة يوغوسلافيا؟ ـ طلَبَ من وزير خارجيَّة الولايات المتحدة أن يأخذ في الاعتبار أسبابَ الإرهاب الفلسطينيّ. تقول الجريدةُ، وأنا الآن أَقْتبس منها، إنَّ وزير الخارجيَّة جورج شولتز «احمرَّ وجهُه قليلاً، ثم ضَرَبَ الطاولة وأَخْبر وزيرَ الخارجيَّة الضيفَ أنْ ليست هناك علاقةٌ للإرهاب بأيّ سبب. نقطة على السطر.» لِمَ البَحثُ عن أسباب؟

الخاصيَّة **رقم ٦** للمقاربة الرسميَّة للإرهاب: الاشمئزاز الأخلاقيّ الذي نَشْعر به حيال الإرهاب يجب أن يكون انتقائيّاً. علينا أن نخاف من إرهاب تلك المجموعات التي لا يوافِقُ عليها المسؤولون. وعلينا أن نوافِقَ على إرهاب المجموعات التي يوافِقُ عليها المسؤولون. ولهذا يقول الرئيس ريغان: «أنا مع الكونترا.» لقد قال ذلك فعلاً. ونحن نَعْرف أنَّ الكونترا في نيكاراغوا كانوا، وفقًا لأيّ تعريف، كلَّ شيء إلاّ إرهابيِّين.[1] ولكي تَبْتعد وسائلُ الإعلام عن المسؤولين اهتمّت بالرأي السائد عن الإرهاب!

تسْتبعد المقاربةُ السائدةُ للإرهاب من الاعتبار إرهابَ الحكومات الصديقة. وسأعود إلى هذه المسألة لأنَّها غَفَرتْ ـ من بين ما فعَلتْ ـ إرهابَ پينوشيه، الذي قَتَلَ واحدًا من أقرب أصدقائي، هو أورلاندو لوتولييه، وغَفَرَتْ إرهابَ ضياء الحقّ، الذي قَتَلَ عددًا كبيرًا من أصدقائي في باكستان. كلُّ ما أودّ قولَه لكم ـ من حساباتي الجاهلة ـ أنَّ نسبة الأشخاص الذي قُتِلوا بسبب إرهاب الدولة الذي مارسه ضياءُ الحقّ، وپينوشيه، والنمطُ الأرجنتينيّ والبرازيليّ والأندونيسيّ من الإرهاب، إلى القتل الذي ارتكبتْه منظَّمةُ التحرير الفلسطينيَّة وغيرُها من المنظّمات الشبيهة لَهِي على أقلِّ تقديرٍ مئةُ ألف قتيل إلى قتيلٍ واحد. هذه هي النِّسْبة!

لكنَّ التاريخ للأسف يَعْترف، ويُبْرز إلى الضوء، القوَّةَ لا الضعفَ. ولذلك أُبرزتْ إلى الضوء، تاريخيّاً، المجموعاتُ المهيمِنةُ. فزمنُنا نحن، أي الزمنُ الذي بدأ بيومنا هذا [١٢ تشرين الأول/أكتوبر] الذي يُصادف ذكرى اكتشاف العالم الجديد عام ١٤٩٢ على يد كولومبوس، زمنٌ من الهولوكوستات المذهلة التي لم تُدَوَّنْ [في التاريخ الرسميّ للأقوياء]. لقد مُحِيتْ حضاراتٌ عظيمة: أُفْنِيَ

* ـ واضح أنَّ الكاتب يقول ذلك على سبيل السخرية. (م)

نصف إنتاج الأدوية في السودان دُمِّر بفعل الضربة الأميركيّة عام ١٩٩٨

شَعْبُ المايا، وشعبُ الإينكا، وشعبُ الأزتك؛[١] أُفْنِيَ الهنودُ الأميركيُّون والهنودُ الكنديُّون كلُّهُم. لم تُسْمَعْ أصواتُهم، إلى يومنا هذا، بشكلٍ كامل. صوتهم بدأ يُسْمَعُ، ليس ثمّة شكٌّ في ذلك، ولكنّه لا يُسْمع إلاّ حين تُعاني القوّةُ المهيمِنة، حين يبدو أثرٌ وإنْ ضئيل من الكلْفة التي تُجبِر تلك الشعوبُ أعداءها على دَفْعها، كأنْ يُقتَلَ واحدٌ مثلُ كاستر أو يحاصَرَ آخرُ مثلُ غوردون.[٢] فعندها فقط يَعْلم الناسُ أنَّ هناك هنودًا يحارِبون، وأنَّ هناك عربًا يحارِبون ويموتون.

النقطة الأخيرة التي سأتحدَّث عنها في هذا القسم هي أنَّ سياسة الولايات المتحدة في فترة الحرب الباردة رَعَت الأنظمةَ الديكتاتوريّةَ واحدًا تلو الآخر. فسوموزا، وباتيستا، وجميعُ أنواع الطغاة كانوا أصدقاء لأميركا. أنتم تَعْرفون هذا. وكان ثمّة سببٌ لذلك. لستُ أنا ولا أنتم مسؤولون عن ذلك. لسنا مسؤولين عن دعم الكونترا في نيكاراغوا، ولا المجاهدين في أفغانستان، ولا الآخرين في السلڤادور، إلخ.

دوافع الإرهاب

والآن لننظرْ إلى الجهة المقابلة. ليس ثمة في الجهة المقابلة أيضًا خيرٌ كثير. وعليكم ألاّ تتخيَّلوا أنَّني جئتُ لأَمْدح الجهةَ المقابلة! لكنْ لا تَنْسوا التوازنَ، ولا تَنْسوا اللاتوازنَ، واسألوا أنفسَكم أولاً: «ما هو الإرهاب؟» يجب أن تكون مهمَّتُنا الأولى هي تعريفَ هذا الشيء اللعين، أن نسمِّيه باسمه الحقيقيّ، أن نَصِفَه وصفًا ما مختلفًا عن أنّه «المعادلُ الأخلاقيّ لآبائنا المؤسِّسين» أو أنّه «عارٌ أخلاقيٌّ على الحضارة الغربيّة.» سأَنْقل لكم ما وَرَدَ في **معجم وبستر لطلاّب الكليّات**: «الرعب terror هو خوفٌ حادٌّ وبالغ.» ويورد المعجم كلمتيْ «مُرْهِب» و«إرهاب» فيقول: «استخدام أساليبُ مُرْهبة/إرهابيّة terrorizing للحُكْم أو لمقاومةِ الحُكْم.» هذا التعريف البسيط ذو فضيلة عظيمة واحدة، وهي الإنصاف. فهو يركِّز على استخدام العُنفِ القاهر، العنفِ الذي يُستعمَل بشكلٍ غيرِ شرعيّ، خارج إطار الدستور، من أجل الإكراه. وهو تعريفٌ صحيح لأنَّه يُحاكِمُ الإرهابَ بما هو حقّاً، سواء أكان مرتكِبُه من الحكومات أم من الأفراد.

---

١ ـ المايا: شعب هنديّ من شعوب أميركا الأصليّة عاش قبل غزو كولومبوس، وعُرف بحضارته الرفيعة. الإينكا: شعبٌ هنديّ من شعوب أميركا الأصليّة أيضًا، أسّس إمبراطوريّةً في البيرو (حوالى العام ١٤٠٠) قبل الغزو المذكور. الأزتك: من الشعوب النهواتليّة، أسّس إمبراطوريّةً مهمّةً في مكسيكو الوسطى قبل أن يحتلّها كورتيز عام ١٥١٩. (م)

٢ ـ جورج آرمسترونغ كاستر (١٨٣٩ ـ ١٨٧٦): جنرال أميركيّ قاتَلَ الهنود. قُتل هو وكلُّ رجاله (وعددهم ٢٦٦) في إحدى المعارك. شارلز جورج غوردون (١٨٣٣ ـ ١٨٨٥): جنرال بريطانيّ. كان حاكمًا إداريًا في مصر والصين. قتله ثوارُ السودان. (م)

ألاحظتُم شيئًا؟ لا مشاعرَ انفعاليَّةً في هذا التعريف. فهو لا يتحدَّث ما إذا كان سببُ الإرهابُ مُحِقّاً أو غيرَ مُحِقّ. بل يتحدَّث عن الإجماع، والقُبول، وغيابِ الرضى (القَهْر)، والشرعيّةِ، وغيابِ الشرعيّة، والدستوريّة، وغيابِ الدستوريّة. ولماذا يكون علينا أن نَتْرك الانفعالات جانبًا؟ لأنَّ الانفعالات تتغيَّر، ولا تغيِّر. لقد حدَّدتُ في عملي عدّةَ أنواع من الإرهاب. **الأوّل**: إرهابُ الدولة. **الثاني**: الإرهابُ الدينيّ، أي الإرهابُ الذي يُلْهِمُه الدِّينُ، كقتل الكاثوليك للبروتستانت، والسُّنَّةِ للشّيعة، والشّيعةِ للسُّنّة ـ يا إلهي! ـ ويمكن أن تسمُّوه «الإرهابَ المقدَّس» إنْ شئتم. **الثالث**: إرهابُ الجريمة، مثل إرهاب المافيات. **الرابع**: الإرهاب المَرَضيّ. أنتَ مريض. تريد اهتمامَ العالم كلِّه. عليكَ أن تَقْتل رئيسًا للجمهورية. وستفعل. وقد تَحْتجز باصًا. **الخامس**: الإرهاب الذي تمارسه المعارضة أو يمارسه فريقٌ خاصّ، هنودًا أو فيتناميِّين أو جزائريِّين أو فلسطينيِّين أو من جماعة بادرْ ـ ماينهوف [الألمانيَّة] أو الألوية الحمراء [الإيطاليَّة]. لا تَنْسوا هذه الأنواعَ الخمسةَ من الإرهاب. ولا تَنْسوا أمرًا آخر إضافيّاً: وهو أنَّ هذه الأنواع قد تتلاقى. فقد تبدأ بإرهابٍ احتجاجيّ، ثم يُجنّ جنونُك، فتصبح مَرَضيّاً، وتواصِل إرهابَكَ.

إنَّ الإرهابات قد تتلاقى. فإرهابُ الدولة قد يتَّخذ شكلَ الإرهاب الذي تقوم به جماعاتٌ خاصة. نحن نَعْرف، مثلاً، عصاباتِ القتل في أميركا اللاتينيَّة أو باكستان. هناك، الحكومة هي التي وَظَّفَتْ أفرادًا لقتل خصومها. ليس الأمر رسميّاً تمامًا هناك؛ بل هو مُخَصْخَص! وقد يُجَنّ الإرهابيُّ السياسيُّ ويصبح مَرَضيّاً. وقد يَنْخرط المجرمُ في السياسة. ففي أفغانستان، وفي أميركا الوسطى، وَظَّفَتْ وكالةُ المخابرات المركزيّة الأميركيّة في عمليّاتها السريَّة باعةَ المخدِّرات. غالبًا ما تَخْتلط المخدِّراتُ بالبنادق: فالتهريبُ يكون لكلّ شيء في الغالب.

من بين أنواع الإرهاب المذكورة لا يتمّ التركيزُ [في الإعلام الرسميّ] إلاّ على نوع واحد، هو أقلُّ الأنواع كلفةً من حيث ضحاياه البشريَّةُ والماديَّةُ. أكبرُ الأنواع كلفةً هو إرهاب الدولة. يليه الإرهابُ الدينيّ، مع أنَّ هذا تراجَعَ نسبيّاً في القرن العشرين ـ وأكلافُه هائلةٌ إنْ قرأتم التاريخَ. يلي ذلك الإرهابَ من جهة الكُلْفة إرهابُ الجريمة. وبعده الإرهابُ المَرَضيّ؛ وقد بيَّنتْ دراسة لشركة «راند» قام بها برايان جَنْكِنْز أنَّ ٥٠٪ من أعمال الإرهاب التي ارتُكبتْ خلال عشر سنوات تَنْتهي بعام ١٩٨٨ لم يَكُنْ لها أيُّ سبب سياسيّ على الإطلاق. لا سياسة؛ فقط جريمةٌ ومَرَض. إنّ التركيز الإعلاميّ هو إذن على إرهاب واحدٍ، هو الإرهاب السياسيّ كالذي تمارسه منظمة التحرير الفلسطينيَّة، وبن لادن، ونحوُهما. لكنْ لماذا يقوم مثلُ هؤلاء بهذا العمل؟ وما الذي يحرِّك الإرهابيّ؟

سأرمي إليكم بالدوافع سريعًا. أولاً: حاجةُ الإرهابيّ إلى أن يُسْمَع. تصوَّروا، نحن نتعامل مع مجموعةٍ أقليَّة، هي الإرهابيّ السياسيّ أو الخاصّ. عادةً، وهناك استثناءات طبعًا، ثمّة جهدٌ يَبْذله المرء لكي يُسْمِع همومَه، لكي يُسْمع أشجانَه للناس. حين لا يَسْمعونها، تتحرّك أقليّةٌ ما، فتصفِّقُ الغالبيَّةُ لها استحسانًا. خُذ الفلسطينيِّين مثلاً، الذين يُعَدُّون قمَّةَ الإرهاب في زمننا. هؤلاء هُجِّروا عام ١٩٤٨. وبين عام ١٩٤٨ ومنتصف الستينيَّات ذهبوا إلى كلّ محكمة في العالم، وقَرعوا كلَّ بيتٍ في العالم. فقيل لهم إنَّهم هُجِّروا لأنّ إحدى الإذاعات العربيَّة طلبتْ منهم أن يَرْحلوا عن أرضهم؛ وهذه كذبة. لم يستمع أحد إلى الحقيقة التي يقولها الفلسطينيُّون. ولذا اخترعوا في النهاية نوعًا جديدًا من الإرهاب، هو اختراعُهم هُمْ بالمعنى الحرفيّ للكلمة، وأَقْصد: خَطْف الطائرات. وبين ١٩٦٨ و١٩٧٥ حَمَلوا العالَمَ من أُذنيْه. جَرُّونا جرّاً، وقالوا: «اسمعوا. اسمعوا.» وسَمِعْنا. ومازلنا إلى الآن لَم نُنْصِفْهم، ولكنَّنا على الأقلّ نَعْرف أنَّهم موجودون. بل إنَّ الإسرائيليِّين أنفسهم يُقرّون بذلك. تذكَّروا أنَّ غولدا مائير، رئيسة وزراء إسرائيل، قالت عام ١٩٧٠ أنْ لا وجود للفلسطينيِّين. ولكنَّهم موجودون اليوم حقّاً، ونحن [الإسرائيليِّين والأميركيِّين] نَغشُّهم في أوسلو. على الأقلّ ثمّة اليوم أشخاصٌ لنغُشَّهم! لا نستطيع أن نرميهم خارجًا هكذا. وهكذا نرى أنَّ حاجة «الإرهابيّ» لأن يُسْمَعَ أمرٌ ضروريّ. وهذا هو الدافع الأوّل.

ثانيًا: إنَّ مزيجًا من الغضب والعجز يُنْتج حاجةً ملحّةً إلى الضَّرْب العشوائيّ. أنتَ غاضب. وتَشْعر بالضعف. وتريد أن تعاقِب. تريد أن تُنْزِل بمَنْ ضَرَبَكَ عدالةً جزائيَّةً. تُخْبرنا تجاربُ العنف الذي يمارسه الفريقُ القويُّ أنَّها حَوَّلت الضحايا إلى إرهابيِّين. فقد ثَبَت أنَّ الأطفال الذين تعرَّضوا للضرب يصبحون أهلاً يؤذون أولادَهم، ويَغْدون بالغين عنيفين. أنتم تَعْرفون ذلك. وهذا ما يَحْدث للشعوب وللدول: حين تُضْرب تَردُّ بالضرب. إنّ إرهاب الدولة غالبًا ما يَسْتَوْلِد إرهابًا جماعيّاً. أَتَذْكرون أنَّ اليهود لم يكونوا إرهابيِّين قبل الهولوكوست؟ لم يُعْرَفْ عن اليهود بشكل عامّ أنَّهم ارتكبوا الإرهابَ إلاّ أثناء الهولوكوست وبعدَها. وتبيِّن معظمُ الدراسات أنَّ غالبيَّةَ أعضاء أسوإ تنظيميْن إسرائيليَّيْن في إسرائيل أو فلسطين، وهما عصابتا السترن والإرْغون، كانوا مهاجرين من أكثر البلدان عداءً للساميَّة في أوروبا الشرقيَّة وألمانيا. وبالمِثْل، فإنَّ الشبّان الشيعة في لبنان، أو الفلسطينيِّين من مخيَّمات اللاجئين، هم شعبٌ مضروب. ولهذا يصبحون عنيفين جداً. إنَّ الغيتوات عنيفةٌ من داخلها. وتصبح عنيفةً ضدّ الخارج حين يكون هناك هدفٌ خارجيٌّ واضحٌ يُمْكن تعيينُه، عدوٌّ تستطيع الغيتواتُ أن تقول عندها: نعم، هذا هو الذي آذاني. ثم تَضْربه.

ثالثًا: إنَّ المثال أو القُدْوة أمرٌ سيِّئٌ. ذلك أنَّ المثال يَنتشر. فمثلاً تمّ الإعلانُ الواسعُ عن خطفِ طائرة TWA في بيروت. بعد هذا الخطف حصلتْ محاولاتُ خطفٍ في ٩ مطارات أميركيَّة مختلفة؛ فثمّة مجموعات أو أفراد يَقْتدون بآخرين. والمثالات الأخطر هي التي تقدِّمها الحكوماتُ. فحين تَنْخرط الحكوماتُ في الإرهاب تقدِّم

قُدواتٍ عُظْمَى تُحْتذى. وحين تَنْخرط في مساعدة الإرهاب تقدِّم مجموعةً أخرى من القُدوات.

رابعًا: إنَّ غياب الإيديولوجيا الثوريّة أمر مركزيّ في الإرهاب الذي تمارسه الضحيّة. فالثوريُّون لا يَرْتكبون إرهابًا لاعقلانيّاً. ومَنْ كان منكم على أُلفةٍ بالنظريَّة الثوريَّة يَعْلَم السِّجالاتِ والنِّزاعاتِ والجدالاتِ والمعاركَ في صفوف المجموعات الثوريّة في أوروبا، كالنزاع بين الفوضويِّين والماركسيِّين مثلاً. لكنَّ الماركسيِّين ما انفكُّوا يحتجُّون بأنَّ الإرهاب الثوريّ، إنْ قُيِّضَ للمرء أن يَشْترك فيه، يجب أن يكون انتقائيّاً على المستويَيْن السوسيولوجيّ والنفسيّ. لذا كانوا يَحضُّون على عدم خطف الطائرات، وعدم احتجاز الرهائن، وعدم قتل الأطفال ـ بحقّ السماء! أَوَتَذْكرون أنَّ الثورات العظيمة، كالثورة الصينيّة والڤيتناميّة والجزائريّة والكوبيّة، لم تَنْخرطْ أبدًا في إرهاب الخطف؟ صحيح أنَّها مارست الإرهاب، ولكنَّه كان انتقائيّاً إلى درجةٍ عالية، وسوسيولوجيّاً إلى حدٍّ كبير. لقد كان إرهابًا يَبْعث على الأسى، ولكنَّه كان ذا طبيعةٍ منظّمةٍ ومحدودةٍ جدّاً وانتقائيّة. خلاصةُ الأمر أنَّ غياب الإيديولوجيا أمرٌ مركزيّ في ظاهرة الإرهاب الضَّحَويّ.

سؤالي الأخير هو: هذه الظروف وُجدتْ منذ زمن طويل، فلماذا هذا الهيجانُ في الإرهاب السياسيّ الذي ينفِّذه أفرادٌ؟ لماذا هناك عملياتٌ كثيرةٌ من هذا النوع، ولماذا هي مرئيَّةٌ إلى هذا الحدّ؟ الجواب هو التكنولوجيا الحديثة. فأنتَ [الإرهابيُّ الفَرْد] ذو قضيّة، وتَسْتطيع أن تُوصِلها إلى الآخرين من خلال الراديو والتلفزيون. سيتدفَّقون إليك إنْ أنتَ اختطفتَ طائرةً واحتجزتَ ١٥٠ رهينةً أميركيّة. كلُّهم سيستمعون إلى قضيَّتكَ. في يدك سلاحٌ حديثٌ تستطيع أن تُطْلِقَ منه مسافة ميلٍ كامل. هم لا يستطيعون أن يَصِلوا إليك. كما أنَّ لديك وسائلَ الاتِّصال الحديثة [التلفزيون والراديو]. وحين تَضَع القضيَّةَ، إلى جانب وسيلة القهر، وأداةِ الاتِّصال، تكون السياسةُ قد صُنِعتْ. صار نوعٌ جديدٌ من السياسة مُمْكنًا.

نصيحتي لأميركا

في مواجهة هذا التحدِّي مازال الحكّام في بلدٍ تلوَ البلد يَسْتَخْدمون الوسائلَ التقليديَّة، المتمثِّلةَ في إطلاق الصواريخ أو نحوها. الإسرائيليُّون فخورون جدّاً بذلك. وكذلك الأميركان. وبات الفرنسيُّون فخورين جدّاً كذلك. والآن الباكستانيُّون فخورون بذلك أيضًا، فهم يقولون: رجال الكوماندوس التابعون لنا هم الأفضل. ولكنْ، بصراحة، لن يَنْفع ذلك كلُّه. فثمّة مشكلةٌ مركزيَّةٌ في عصرنا، وهي أنَّ العقول السياسيَّة متجذِّرةٌ في الماضي، في حين أنَّ الأزمنة الحديثة تُنْتجُ حقائقَ جديدة. خلاصة الأمر، إذن، ما هي نصيحتي لأميركا؟

لم تأت قواتٌ أجنبيَّة إلى السعوديّة، حيث مكّة والمدينة، قبل ١٩٩٠

أولاً: تجنَّبي المعاييرَ المزدوجةَ القصوى. إذا كنتِ ستمارسين معاييرَ مزدوجةً، فستجازين بمعايير مزدوجة. لا تستخدمي هذه المعايير. لا تتغاضي عن الإرهاب الإسرائيليّ أو الإرهاب الباكستانيّ أو الإرهاب النيكاراغويّ أو الإرهاب السلڤادوريّ من جهة، لتعودي بعدها للتذمُّر من الإرهاب الأفغانيّ أو الإرهاب الفلسطينيّ من جهة ثانية. هذا التصرُّف لا يُجْدي. حاولي أن تكوني عادلة. لا يُمْكن قوةً عُظْمى أن تروِّج الإرهابَ في مكان وتتوقَّعَ ـ بكامل عقلها! ـ أن تثبِّطَ عزيمةَ الإرهاب في مكانٍ آخر. هذا أمرٌ لا يُجْدي نفعًا في هذا العالم المتقلِّص.

ثانيًا: لا تتغاضي عن إرهاب حلفائك. دينيهِمْ. حاربيهِمْ. عاقبيهِمْ. ورجاءً، تجنَّبي وحاذِري العملياتِ السريَّةَ وأعمالَ الحرب «ذاتَ الحدّة المنخفضة.» فهذه العمليّات تُنْتج أرضًا خصبةً للإرهاب وللمخدِّرات. إنَّ العنف والمخدِّرات تُسْتَوْلَدُ هناك. لقد صنعتُ فيلمًا عن بنْية العمليّات السريَّة، عنوانُه «التعامل مع الشيطان،» وقد أحبَّه الناسُ في أوروبا كثيرًا. فيه بيَّنتُ أنَّه حيث تكونُ العملياتُ السرِّيَّةُ ثمّة مشكلةُ مخدِّراتٍ مركزيَّةٌ. فبسبب بنْية هذه العمليّات السريَّة باتت أفغانستان وڤيتنام ونيكاراغوا وأميركا الوسطى أماكنَ مضيافةً لتجارة المخدِّرات. إذن، تجنَّبي هذه العمليّات. تخلَّيْ عنها. إنَّها لا تُجْدي نفعًا.

ثالثًا: رجاءً، ركِّزي على الدوافع، وساعدي في تحسينها. حاولي أن تنظري إلى الدوافع وأن تحلّي المشاكل. لا تركِّزي على الحلول العسكريَّة. لا تَسْعي وراء الحلول العسكريَّة. إنَّ الإرهاب مشكلة سياسيَّة. فاسْعي وراء الحلول السياسيَّة. الديبلوماسيَّة تُجْدي. خُذي مثالاً الهجومَ الأخيرَ على بن لادن [عام ١٩٩٨].(١) أنتِ لا تعلمين مَنْ تهاجمين.

الأميركان يقولون إنَّهم يَعْلَمون، ولكنَّهم لا يَعْلَمون. حاولوا قتلَ القذّافي، ولكنَّهم قتلوا ابنتَه ذاتَ الأعوام الأربعة. الطفلة المسكينة لم تَفْعل شيئًا، والقذافي مازال حيّاً يُرْزق. وحاولوا أن يَقْتلوا صدّام حسين، فقتلوا ليلى بن عطّار، وهي فنّانة بارزة وامرأة بريئة. ثم حاولوا أن يَقْتلوا بن لادن ورجالَه، فلم يمتْ واحدٌ منهم بل مات خمسةٌ وعشرون شخصًا آخرون. وحاولوا أن يدمِّروا

١ ـ للتفصيل تُراجع مقابلةٌ مع تشومسكي في الآداب ٩/١٠، ١٩٩٨. (م)

مصنعًا للمواد الكيميائيّة في السودان، والآن يُقِرُّون بأنّهم دمّروا مصنعًا بريئًا؛ نصفُ إنتاج الأدوية في السودان دُمِّر بفعل الضربة، ولم يُدمَّر مصنعٌ كيميائيّ. إنتِ يا أميركا لا تَعْلمين. تظنّين أنّكِ تَعْلمين.

أربعةٌ من صواريخِكِ سقطتْ في باكستان. واحدٌ أصيب بأضرارٍ طفيفة. واثنان دُمِّرا تمامًا. والأخيرُ سقط سليمًا. عشرة أعوام والحكومةُ الأميركيّةُ تُحاصِر باكستان لأنّ باكستان تحاول ـ وبحماقةٍ ـ أن تبنيَ أسلحةً نوويّةً وصواريخ، ففرضتْ أميركا حصارًا تكنولوجيّاً على بلدي. ولكنّ صاروخًا واحدًا بقي سليمًا. فماذا تظنُّون أنّ المسؤول الباكستانيّ الحكوميّ قال لـ **واشنطن بوست**؟ لقد قال: إنّ هذا الصاروخ هديّةٌ من اللّه [الجمهور يَضْحك]. قال: كنّا نريد التكنولوجيا الأميركيّة، والآن جاءتنا هذه التكنولوجيا، وعلماؤنا يَفْحصون هذا الصاروخ بعناية شديدة. إذن، الصاروخ سَقَطَ في الأيدي الخطإ. ولذا لا تفعلي ذلك. ابحثي عن الحلول السياسيّة لا العسكريّة؛ فهذه الأخيرة تسبِّب من المشاكل أكثرَ ممّا تَحُلّ.

رابعًا: رجاءً، حاولي أن تعزِّزي وأن تقوّي من هيكليّة القانون الدوليّ. كانت ثمّة مَحْكمةٌ جزائيّةٌ في روما، فلماذا لم يَذْهب الأميركان إليها أولاً لكي يَحْصلوا على تفويضٍ منها ضدّ بن لادن، إنْ كانت لديهم بعضُ الأدلّة؟ خذي تفويضًا، ثم لاحقيه. على المستوى العالميّ نفّذي قرارات الأمم المتحدة. نفّذي قرارات محكمة العدل الدوليّة. فهذه الأحاديّة تَجْعلنا نَبْدو أغبياء جدّاً، وتجعل كلّ هذه المؤسّساتِ الدوليّة تبدو أصغرَ مقارنةً بنا.

[انتهت محاضرةُ إقبال أحمد. وجاءت فترة الأسئلة. فسئل عن قصته مع بن لادن فأجاب:]

قال أحدُ الحاضرين إنّني ذكرتُ أنّني سأتطرّق إلى قصة بن لادن، وهو الرجل السعوديّ الموجود في أفغانستان، ولكنّني لم أفعلْ. وطَلَبَ مني أن أُفَصِّل بعضَ الشيء. إنّ مغزى قصة بن لادن شبيهٌ تقريبًا بمغزى قصة الشيخ عمر عبد الرحمن، الذي اتُّهِم ودِينَ بتشجيع نَسْف مركز التجارة العالميّ في مدينة نيويورك. ونشرتْ مجلةُ **ذا نيويوركر** مقالاً طويلاً عنه. والمغزى هو نفسه مغزى قصة ايمَل كَنْسي، وهو الباكستانيّ البالوشيّ الذي دِينَ بقتل عمليّيْن في جهاز المخابرات المركزيّة الأميركيّة. فلأحاولْ أن أختصر هنا.

كلمة «الجهاد» ليست تمامًا كما تُرجمتْ آلافَ المرّة إلى الإنكليزيّة بـ «الحرب المقدّسة.» «الجهاد» كلمة عربيّة تعني الكفاح. قد يكون كفاحًا بالعنف، أوْ بغيرِ وسائلِ العنف. هناك نوعان: جهاد كبيرٌ وجهاد صغيرٌ. الجهاد الصغير يتضمّن عنفًا. وأمّا الكبير فصراعٌ مع الذات. ذكرتُ هذا لأنّ الجهاد كظاهرة عالميّةٍ عنفيّةٍ اختفى من التاريخ الإسلاميّ في الأعوام الأربعمئة الأخيرة، ولكنْ أعيد إحياؤه فجأةً بمساعدةٍ أميركيّةٍ في الثمانينيّات. فحين تدخّل الاتّحادُ السوفياتيّ في أفغانستان رأى ضياءُ الحقّ، وهو الديكتاتور العسكريّ لباكستان التي تتاخِم أفغانستان، فرصةً سانحةً لشنّ «الجهاد» هناك ضدّ الشيوعيّة الملحدة. ورأت الولاياتُ المتحدة فرصةً جاءتها من اللّه لتعبئةِ مليارِ مسلم ضدّ ما أسماه ريغان «إمبراطوريّةَ الشر.» فبدأت الأموالُ الأميركيّةُ بالتدفّق. وشرع عملاءُ المخابرات المركزيّة الأميركيّة بالذهاب إلى جميع أنحاء العالم الإسلاميّ لتنظيم النّاس ليحاربوا في معركة الجهاد العظيمة. كان بن لادن واحدًا من أفضل المجنَّدين الأوائل. لم يكن عربيّاً فحسب، بل سعوديّاً أيضًا. ولم يكن سعوديّاً فقط، بل مليونيرًا كبيرًا وعلى استعداد لأن يَدْفع مالَه الخاصّ لدعم القضيّة. وراح بن لادن يجول في المنطقة ينظِّم الناسَ لـ «الجهاد» ضدّ الشيوعيّة.

التقيتُ بن لادن أوّلَ مرّةٍ عام ١٩٨٦. كان قد نصحني بلقائه مسؤولٌ أميركيٌّ لا أعلم إنْ كان عميلاً [للمخابرات الأميركيّة] أم لا. كنتُ أتحدّث مع هذا المسؤول، فقلتُ: «مَنْ هم العربُ هنا المثيرون جدّاً للاهتمام؟» وقصدتُ بـ «هنا» أفغانستان وباكستان. أجاب: «عليكَ بلقاءِ أسامة.» ذهبتُ لرؤية أسامة. هناك كان: غنيّاً، يأتي بالمجنَّدين من الجزائر، من السودان، من مصر، مثله مثل الشيخ عبد الرحمن. هذا الرجل كان حليفًا لأميركا. وبقي حليفًا لها. ولكنّه تحوّل عنها في لحظةٍ محدَّدة. ففي عام ١٩٩٠ ذهبت الولاياتُ المتحدة بقوّاتها المسلّحة إلى السعودية. والسعوديّة هي حيث مكة والمدينة المقدّستان لدى المسلمين. لم تأتِ قواتٌ أجنبيّةٌ إلى هناك من قبل، ولكنّها ذهبتْ عام ١٩٩٠ أثناء حرب الخليج باسم مساعدة السعودية في هزيمة صدّام حسين. آنذاك بقي بن لادن صامتًا. هُزِم صدّام، غير أنّ القوات الأميركيّة بقيتْ في أرض الكعبة. فكَتَبَ بن لادن رسالةً تلوَ الأخرى يقول: «لِمَ أنتم هنا؟ أُخْرجوا! لقد جئتم لتساعدوا، ولكنّكم بقيتم.» وفي نهاية المطاف بدأ بن لادن الجهادَ ضدّ المحتلّين الجدد. والمهمّة الجديدة التي نَذَر نفسَه لها هي إخراج القوات الأميركيّة من السعوديّة. وكانت مهمّته الأولى هي إخراج القوات الروسيّة من أفغانستان. أرأيتم ما عنيتُه سابقًا حين تحدّثتُ عن العمليّات الأميركيّة السريّة؟

النقطة الثانية التي يجب أن نَذْكرها عن بن لادن هو أنّه من شعبٍ قَبَليّ. لا يهمّ إنْ كان مليونيرًا. فأعْرافُهم الأخلاقيّة هي أعرافٌ قبليّة، وتتلخّص بكلمتين: الوفاء والثأر. أنتَ صديقي، فاحْفَظْ عهدَكَ أكنْ وفيّاً لك. فإذا خنتَ عهدَك سلكتُ طريقَ الثأر. وبالنسبة إلى بن لادن، أميركا خانت عهدَها. لقد خانه الصديقُ الوفيُّ. خانكَ ذاك الذي حلفتَ بدمكَ أن تكون وفيّاً له. ولهذا سيَلْحقكِ، هو وإخوانه، يا أميركا. بل سيفعلون ما هو أعظمُ بكثير. فهؤلاء هم دجاجُ حربِ أفغانستان يعودون إلى قُنِّهم! ولهذا قلتُ بضرورة توقُّفِ العمليات السريّة. فهناك ثمنٌ مرتبطٌ بهذه العمليات لا يستطيع الشعبُ الأميركيُّ حسبانَه، ولا يُدْركه مَنْ كان مِن طينة كيسنجر لأنّه لا يَمْتلك معرفةً بالتاريخ تؤهّله لذلك.

كولورادو